إيدِث وورتن

المِحَكّ

ترجمة:
سوار أحمد قادرة

مكتبة
t.me/soramnqraa

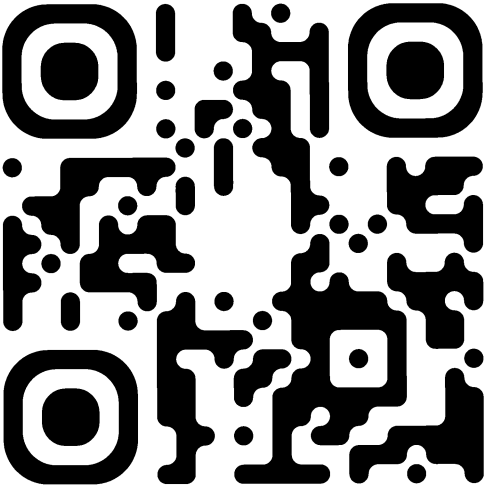

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

المِحَكّ

The Touchstone

المِحَكّ
إيدِث وورتن
ترجمة: سوار أحمد قادرة
منشورات سدرة
بريد إلكتروني:
Sidra.publisher@gmail.com
انستغرام:
@sidrapublishing
تويتر:
@sidrapublishing

مكتبة
t.me/soramnqraa

المِحَكّ

The Touchstone

إيدِث وورتن

Edith Wharton

رواية

ترجمة:

سوار أحمد قادرة

مكتبة
t.me/soramnqraa

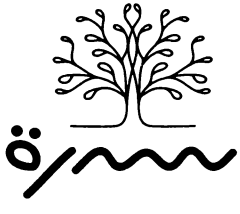

الشخصيات الرئيسة:

ستيفن غلينارد: محامٍ من نيويورك.

أليكسا ترينت: خطيبة غلينارد، ثم زوجته.

السيدة مارغريت أوبين: روائية شهيرة، وحبيبة غلينارد السابقة.

فلاميل بارتون: رجل غني مهتم بالفنون، وباقتناء الأعمال الفنية.

الفصل الأول

«تسر جريدتنا تلبية طلب البروفسور جوسلين بإعلان رغبته الكبيرة في الحصول على أي معلومات عن السيدة أوبين، ليكمل كتابة سيرة حياتها، معبّراً عن شكره وامتنانه لأي من أصدقاء الروائية الشهيرة الذين قد يزودونه بمعلومات عنها قبل وصولها إلى إنجلترا. كانت لدى السيدة أوبين قلة من الأصدقاء المقربين، وعدد لا يُذكر من المعارف الدائمين، ما يجعل رسائلها لا تُقدّر بثمن. يرجى إرسال المعلومات إلى عنوان البروفسور جوسلين الكائن في منطقة حدائق أوغستا 10 في كينغستون، منوهاً بأنه سيعيد على وجه السرعة أي وثائق تُرسَل إليه».

وضع غلينارد الجريدة من يده وراح يحدق إلى النار. كان النادي يعج بالمرتادين، لكنه انزوى كعادته في الغرفة الداخلية الصغيرة ذات الإطلالة الكئيبة على الجادة الخامسة التي تعلوها غيوم داكنة. كان كلّ شيء مملاً وكئيباً، لكنّ شعوراً بالاستياء عكّر صفو مله، فإذا ما استمر الوضع على حاله، فإنه قد يضطر إلى التخلي حتى عن هذا الامتياز المهين في أن يحبس نفسه حتى الملل داخل هذه الجدران الأربعة. ليس الأمر أنه يحبّ النادي، لكن ذاك الاحتمال البعيد في أنه قد يُرغَم على الانقطاع عنه مثّل بالنسبة إليه، في تلك اللحظة بالذات، وربما لبُعد المكان وتفاهته، رمزاً لتنازلاته المتزايدة التي لا تُبقي منه في النهاية سوى كائنٍ يتنفس. كانت تنازلاته وتحولاته عبثية إلى درجة أنها بدت لا ترقى إلى مستوى التضحيات الكبيرة، وشعر بأنه مهما

تنازل عن أشياء زائدة أو غير ضرورية، فإن ذلك لن يقرّبه من منية قلبه.

رأى من خلال الباب المفتوح الشاب هولينغزوورث ينهض متثائباً متثاقلاً بعد أن أتخمه الشرب، يجرّ جسده التائه نحو النافذة، وعين غلينارد تراقبه بازدراء. كانت تلك عادته في النهوض والتوجه صوب النافذة عندما تسود العتمة. إنه هولينغزوورث، ذاك الرجل الثري الذي يملك ما يمكّنه من فعل أي شيء يُسعِده، إن كان قادراً على الشعور بالسعادة، لكنّ بطء فهمه وقلة استيعابه يمنعانه من التفكير في أي إنجاز. في حين يجلس غلينارد على بعد بضع خطوات منه، لا يفكر في سوى امتلاك ما يكفي لشراء معطفٍ لائق وسقفٍ يُظِلّ به رأس المرأة التي يحب. غلينارد الذي تعب وكدح وأنكر ذاته كرمى أملٍ ضئيل حوّلته حماسته إلى قصر، يجلس الآن ويحسب متألماً أنه سيظلّ بعيداً عن نيل مراده حتى لو انقطع عن النادي وأقلع عن التدخين وتخلى عن التنزه أيام الأحد خارج المدينة.

انزلقت الجريدة وسقطت عند قدميه. وبينما التقطها، وقعت عينه مجدداً على الإعلان الموجه إلى أصدقاء السيدة أوبين. كان قد قرأ الإعلان أول مرة دون انتباه أو تدقيق، فاسم الروائية كان ذائعاً حتى لم تعد العين تلحظه، تماماً كما تمر الحشود كل يوم أمام نصبٍ مألوف بسرعة ودون الالتفات إليه.

«**معلومات عنها قبل وصولها إلى إنجلترا...**». استدعت هذه الكلمات ذكراها إلى مخيلته. تخيلها كما رآها أول مرة، المرأة الفقيرة العبقرية بوجهها الشاحب الطويل وعينيها الحسيرتين،

وملامحها التي لطّفها سحر الشباب وقلة الخبرة، دون أن تستطيع اختراق قلبه أو هزّ مشاعره. عندما تنطق، تزداد سحراً وجمالاً. أجمل حتى من كلامها في أثناء مناقشة أمور مهمة، لأن نضجها يأخذ من جاذبية الخصوصية والسرية في كلامها الأكثر حميمية، في مخيلة غلينارد على الأقل. كان ذلك في الأيام الأولى، حين كاد يحبّها، لكنّ مشاعره ظلت لحظية لا تتجاوز مدّة التعبير عنها. لاحقاً، عندما أصبح حبها إياه حالةً تثير خيال أي رجل، كان الإحجام الجسدي قد غلب الجاذبية الفكرية على نحو غير مفهوم، حتى أصبحت السنوات الأخيرة مثار عذابٍ وتناقضات مؤلمة لكليهما. وحتى بعد هذه السنين كلها، عندما تلامس يده أوراق رسائلها، يعتصره ألم عميق يتجاوز حدود البؤس والكلمات.

«كانت لدى السيدة أوبين قلة من الأصدقاء المقربين... ما يجعل رسائلها لا تُقدّر بثمن...». قلة من الأصدقاء المقربين! على مدى سنوات طويلة، لم يكن لديها سوى صديق واحد، صديق يردّ على رسائلها الرائعة ودفقات حبها المأساوية وتواضعها وتسامحها بعبارات جافة مبتذلة لا تلبّي عاطفتها الشديدة. تلاشت ملامح وجهها في ذاكرته تقريباً، ولم يحتفظ بسوى صوتها وكلماتها. ضايقه عدم استحقاقه وعجزه عن الارتقاء إلى مستوى شغفها. لكنّ أنانيته لم تكن من النوع الذي يمنحه شعوراً بالرضا عن هذه المغامرة. أن تحبكَ ألمع امرأةٍ في عصرها، وأن تكون عاجزاً عن حبها، لهو دليل ساخر لاذع على القيود التي تكبّلك. لكنّ حنينه إلى ذكراها شابَه استياء منها لأنها منحته مرة واحدة وإلى الأبد مقياساً لقدرته العاطفية. لم يكن الماضي يزور غلينارد

هكذا دائماً، لأن شهرة السيدة أوبين بين الناس خففت عنه ثقل هذا الماضي، حتى بات الاعتذار العاطفي تجاه ذكرى قديمة أصبحت أشبه بقصة كلاسيكية يحمل شيئاً من السخف والعبثية، فعندما يوبخ شخص نفسه لعدم حبّه مارغريت أوبين، فهذا أشبه بالانزعاج من عدم قدرته على الإعجاب بتمثال يوناني قديم. رمته من فوق برج شهرتها العاجيّ الموحش بنظرات تسخر من جلدِه ذاتَه... كان لا يشعر بسريان المشاعر القديمة تُبعث فيه من جديد إلا عندما يصادف شيئاً يخصها، تلك الخفقة الثنائية الغريبة التي تجذبه إلى صوتها وتبعده عن متناول يدها، حتى أصبح يشعر بالألم يعتصر قلبه كلما رأى شيئاً لمستْه. لكنها لحظات أصبحت نادرة اليوم، فهداياها الصغيرة اختفت واحدة تلو الأخرى من غرفته، ورسائلها التي احتفظ بها لإشباع غروره الصبياني الذي لا يقرّ بوجوده، نادراً ما تلامس أصابعه.

«**رسائلها لا تُقدّر بثمن**». رسائلها؟ لديه مئات منها، بل لديه ما يكفي لملء مجلد كامل. شعر أحياناً بأن رسائلها تصل مع كل بريد، فكان يتجنب النظر إلى صندوق بريده كلما دخل غرفته، لكنه كان يشعر بأن رسائلها تنظر إليه كلما أدار مفتاحه في الباب.

نهض غلينارد ودخل الغرفة المجاورة. كان هولينغزوورث قد ابتعد عن النافذة وانضم إلى مجموعة من الرجال الذين أثقل الشراب رؤوسهم، وراح يشرح لهم بعبارات ثقيلة غير مفهومة الأذى الذي يسببه العيش في بقعة يسودها مناخ بغيض يحتّم على المرء الهرب منها مع حلول شهر فبراير، فضلاً عن صعوبة إيجاد بقعة أخرى يصلها بيخته غير تلك البقعة المسماة الريفييرا. ابتعد

غلينارد عن هذه المجموعة وتوجّه صوب أخرى يُسمع فيها صوت آخر يختلف عن صوت هولينغزوورث الكئيب، ويهيمن على دائرة من المستمعين الكسالى.

- «تعال واسمع دينسلو يتحدث عن اختراعه، تعال فالدخول مجاني»، صاح أحد الرجال بنبرة مُستهزِئة.

استدار دينسلو صوب غلينارد تعلو محياه ابتسامة شجاعة واثقة، وأعلن متحدياً:

- «أمهلوا اختراعي ستة أشهر أخرى وسيتحدث عن نفسه. لقد أصبح جاهزاً تقريباً».
- «هل يمكنه أن يقول بابا؟»، تساءل أحدهم ساخراً.

أصبحت ابتسامة دينسلو أكثر اتساعاً وأجاب بنبرة حازمة:

- «سيكون من دواعي سروركَ أن تقول له بابا بعد عامٍ من الآن. سيساعدك حتى على جني المال. تعالوا الآن ودعوني أشرح لكم...».

ابتعد غلينارد منزعجاً. كان الرجال في النادي، باستثناء أولئك «المطّلعين» على تفاصيل الاختراع، قد «سئموا» حديث دينسلو عن اختراعه. أما معرفة غلينارد بمزايا الاختراع وفوائده، فجعلته يهيم كئيباً في بحر الفرص الضائعة. لطالما سادت المودة في العلاقة بين الرجلين، وكانت العروض الملحّة من دِينسلو كي «يشترك معه غلينارد منذ البداية» قد زادت في الآونة الأخيرة شعور غلينارد بعدم قدرته على ملاقاة الحظ السعيد في منتصف الطريق. كان بعض الرجال الذين يصغون إلى دينسلو يرتدون ملابس السهرة بالفعل، والبعض الآخر في طريقهم إلى المنزل

لارتداء ملابسهم. أما غلينارد الذي اعتاد أن تخزه إبر الذل، فقد حداه أمل مثير للشفقة أنه إذا بقي بينهم فقد يدعوه أحدهم إلى تناول العشاء. أخبرته الآنسة ترينت أنها ستذهب إلى دار الأوبرا في تلك الليلة برفقة خالتها الثرية، فإذا حالفه الحظ ودعاه أحدهم إلى تناول العشاء، فسينضمّ إليهما دون القلق بشأن نفقات إضافية.

راح يجول في الأرجاء ويحوم هنا وهناك متظاهراً بالاهتمام لجذب الانتباه. ومع أنه بادل التحيات بلطف، لكنّ أحداً من الرجال لم يدعه إلى العشاء. لا شك أنهم مشغولون جميعاً بشؤونهم، فهؤلاء الرجال الذين يستطيعون دفع ثمن طعامهم، لا يتحيّنون الفرص ليدعوهم أحد ما إلى تناول الطعام كما يفعل المتسولون عندما يبحثون عن كسرة خبز في برميل قمامة. لكن لا! بينما كان هولينغزوورث يبتعد عن الجماعة التي انفضت من حوله أصلاً، صاح شاب معجب:

- «تعال وتناول الطعام يا هولي».

استدار هولينغزوورث صوبه بوجهه الخشن غير المتناسق، وقال:

- «آسف لا أستطيع. تنتظرني مأدبة عامرة».

ألقى غلينارد بنفسه على كرسي قريب. لماذا يتكبّد عناء الذهاب إلى المنزل تحت المطر ليرتدي ملابسه؟ من الحماقة أن يأخذ سيارة أجرة للذهاب إلى دار الأوبرا. ناهيك بأن الذهاب إلى الأوبرا أساساً كان ضرباً أكبر من الحماقة. وبقدر ما كانت لقاءاته المستمرة مع أليكسا ترينت تظلم الفتاة، كانت تثير

اضطرابه. ولمّا كان لا يستطيع أن يتزوج بها، فقد حان الوقت ليتنحى جانباً ويمنح رجلاً أفضل الفرصة، مقرّاً بالتناقض الساخر القائل إن هولينغزوورث قد يكون الرجل الأنسب من باب المصلحة والمنفعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني

تناول غلينارد العشاء وحيداً وعاد مشياً تحت المطر إلى مسكنه. وبينما انعطف نحو الجادة الخامسة، لمح ضوء العربات المبللة المتوجهة إلى دار الأوبرا، فتوارى داخل أول زُقاق جانبي، مستاءً من تلك القيود التافهة التي تحبط اندفاعاته. كان من السخف الجليّ أن يفوته عرض الأوبرا، ليس لأنه قد يشعر بالملل هناك، بل لأنه سيُضطر إلى دفع المال مقابل هذه التجربة.

في غرفة جلوسه، اجتمع الصمت وتواطُؤ الجمادات لتركيز الضوء على صورة أليكسا ترينت المثبتة داخل إطار فضي، تماماً في المكان الذي كلّلته صورة مارغريت أوبين منذ مدة طويلة. يبرّر جمال الآنسة ترينت بقسوة هذا الاستلاب، فهي تتمتع بذلك النوع من الجمال النابع من انسجام جميل بين الشكل والروح. لا تُمنَح كثيرات عيوناً وشفاهاً ترسم وجهاً عذباً نادراً، فبعض النساء يعشن الحياة خلف قناع لا ينطق إلا بقلقهنّ إزاء فاتورة الجزار أو عجزهنّ عن فهم النكتة. أما فِكر الآنسة ترينت وجمالها، فانسجما في طابع جادٍ سام. بدت صورتها أشبه بلوحة تجسّد العدالة رسمتها ريشة فنان بارعٍ من فلورنسا، وبدا لغلينارد أن سِمتها الأبرز، أو تلك التي يعبّر عنها سلوكها على نحو أكثر اتساقاً، هي نوع من العدالة العاطفية، ذاك العدل الأنثوي الغريزي الأكثر نُدرة من العدل المبَرّر بالمنطق. اجتمعت الظروف عليها على نحو مأساوي حتى أصبحت هذه الغريزة عادةً واعية. عاشت ترينت أكثر من غيرها من الفتيات جوانب مظلمة من الحياة،

ومن العوز الدائم الذي يشوه المواقف النبيلة. عاشت طفولة فقرٍ وبؤس، ولم تداعب خيالها يوماً أي من أوهام الحياة الجميلة التي يُفترض أن تكون تاجاً يكلّل الصّبا. لكنّ هذه الفتاة التي صقلتها الحياة ومنحتها عقلانية مؤثرة، جعلت وضع غلينارد أكثر صعوبة من السعي خلف أميرة ثرية. ما يحول بينهما الآن بعض المال. يعرفان أنهما يستطيعان تدبّر أمورهما بقليل منه، لكن ترينت على وجه الخصوص لم تفوت فرصة لتذكيره، بأن المستقبل الذي يحلمان به سيكون مستحيلاً دون هذا القليل.

تأجج غضب غلينارد وتزايد على مرأى صورتها. لقد سئم الدور الذي كان يؤديه وخجل منه. مضى عامان الآن على حبه إياها، بعذوبتها ورقتها التي تزداد كماً وعمقاً حتى قاربت الكمال. عرف أنها ستنتظره، ولكنّ هذا اليقين زاده أسىً ولوعة. هناك أوقات يكون فيها ولاء المرأة التي لا يستطيع المرء أن يتزوج بها متعِباً كحال الاستمرار مع امرأة لا يريدها.

أشعل غلينارد مصباح القراءة وحرك النار في المدفأة. أمامه أمسية طويلة، ويرغب في شغل تفكيره بالعمل. أحضر بعض الوثائق من مكتبه وفردها على الطاولة وجهز نفسه للعمل.

بعد مرور ساعة تقريباً، وجد نفسه يضع مفتاحاً دون أن يشعر في درج مغلق. لم تكن لديه أي فكرة عن العملية العقلية التي أدت إلى هذا الفعل، وكأنه شخص يمشي في نومه. كان يدرك بصورة ضبابية أنه دفع الأوراق والمجلدات الثقيلة جانباً، وأعادها إلى مكانها وأنه سحب دون وعي منه طرداً من الدرج.

كانت الرسائل مكدسةً في حُزم مربوطة ضمت ثلاثين إلى أربعين رسالة، وكانت هناك حزم كثيرة جداً. تلاشى الحبر عن بعض الظروف، وبدا حديثاً واضحاً على ظروف أخرى حملت طابَع البريد الإنكليزي. لم تمضِ على وفاتها ثلاث سنوات بعد، لكنها ظلت تكتب بفواصل زمنية متزايدة حتى النهاية.

فتح غلينارد حزمة قديمة ضمت ملاحظات صغيرة كُتبت خلال لقاءاتهما الأولى في هيلبريدج. فبعد تخرجه في الكلية، بدأ غلينارد حياته في مكتب المحاماة الذي يمتلكه عمّه في المدينة الجامعية القديمة. هناك في منزل والدها البروفسور فورث، التقى أول مرة بالصبية التي عادت تستظل بجناح والدها بعد عامين من زواجٍ فاشل.

في ذلك الوقت، كانت السيدة أوبين امرأة شابة تملؤها الحماسة وتغيّم عليها المأساة إلى حد ما، امرأة ذات مراسٍ صعب وسلوك فوضوي. خرجت من تجربة زواجها القاسية بمجموعة من التعميمات التي تثير الجدل في الأوساط الأكاديمية في هيلبريدج. من حُسن حظها، إن صحّ القول، أن زوجها كان فظاً وسبب المشكلات والخلافات، فاكتسب انفصالها عنه صبغة الكرامة ما جعلها متحدثة باسم النساء الغاضبات. في هذا السياق، كانت السيدة أوبين تحظى بتقدير الجزء الأكبر من مجتمع هيلبريدج الذي كان أقل تساهلاً تجاه الخلافات الزوجية، لكنه استمتع بطبق الأخبار الساخنة المتبّلة بالغضب هذه المرة على الأقل. كانت السيدة أوبين محبوبة جداً بين سيدات الجامعة، إذ جعلتهن هذه العلاقة الجيدة يتجاوزن القواعد المعتادة ويمنحنها حرية

أكبر في التعبير والتصرف باسم الزوجات المظلومات الأخريات في هيلبريدج، تلك البلدة التي تعدّ الحظ العاثر زائراً يهدف إلى وضع الأشخاص في مكانهم المناسب تبعاً لكيفية تعاملهم معه. كانت تلك المرأة الشابة محظوظة تتمتع بالخجل الشخصي والجرأة الفكرية الأشبه باندفاعة غُنج في المكان الخطأ، فقد شعرت بأنها لو كانت أجمل، لتمتعت بالمشاعر بدل الأفكار. في الواقع، كانت حتى ذلك الحين امرأة عبقرية قادرة على إصدار تعميمات لاذعة، ولكنها تفتقر بشكلٍ غريب إلى التبصّر والحكمة عندما يتعلق الأمر بشؤونها الشخصية الحساسة، وظلت كذلك حتى النهاية. خذلتها مقدرتها النفسية التي تنجح لدى أكثر النساء، حتى أن المرء يشعر بأن أفكارها لن تكون جسراً يصل إلى قلبها. لكن غلينارد لم يشغل تفكيره بهذا كله في السنة الأولى من تعارفهما. كان في سنٍّ تعدّ فيها الهدايا والعطايا وقوداً يغذي غرور الشباب الشره. تمتع بذوقٍ فطري دفعه إلى السعي ليظفر بصحبة السيدة أوبين ضماناً لتميزه وتفوقه. فصحبة أذكى امرأة في هيلبريدج ستلبي شهوته للتميز، وهي بمنزلة تأكيد إحساسه السري بأنه مرهون لمكانة كبرى تأكيداً علنياً. لكنّ غلينارد لم يكن متكبراً مختالاً بالتأكيد، فالتكبر تشبعه توافه الأمور، إذ لا أدهى ممن يشك في ذاته. بالنسبة إلى شابٍ طامح مثل غلينارد، يشكل دعم امرأة ذكية رمزاً لكل نجاح. وعندما يصل أهدافه ويجد لنفسه موطئ قدم صلباً فلن يحتاج إلى دعم من هذا النوع، ولكنه سيساعده على تجاوز مرحلة عدم الاستقرار والإحباط بكل خفة وسهولة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

من الظلم تصوير اهتمامه بالسيدة أوبين على أنه عملية حسابية. لقد كانت مشاعره تجاهها غريزية تماماً كالحب، لكنها كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصير حباً. كانت قد أصدرت روايتها الأولى عندما التقيا، وغلينارد الذي أصبح يراوده بعدها انزعاج الرجل الطموح من النساء المميزات، كان شاباً بما يكفي لتبهره الشهرة البسيطة التي حققتها. كانت روايتها من نوع الكتب التي تجعل السيدات المسنات يخفضن أصواتهن عندما يناقشنها خفيةً. كان غلينارد متحمساً لهذا النوع من الكتب، واستمتع بمعرفته الواسعة التي أتاحت له التعامل مع تلك المشاعر بطبيعية، على عكس ردود الأفعال في الأوساط الأكاديمية. والأجمل من ذلك، كان سماع السيدة أوبين تتحدث وتهز أركان الجامعة بجرأة تجاوزت تلك التي تسكن صفحات روايتها. لقد أضاف استقلالها الفكري لمسة من الصداقة إلى علاقتهما، مطيلة أمد متعة الصداقات الجامعية التي تستند إلى تبادل الخطايا المتجسدة في آراء جريئة تبادلاً مفرحاً. جمعت بين غلينارد والسيدة أوبين علاقة قوية وفهم متبادَل. كانا يسيران معاً يغمرهما فيض نور معرفة الشباب الكلية، التي يحجبها القدر على نحو غريب عن كبار السن.

يُعرف أن الأزواج الذين لا يناسب بعضهم بعضاً، قد يموتون في توقيت غير مناسب أيضاً. كان هذا ثأر السيد أوبين من زوجته المكلومة بعد نحو سنتين من عودتها إلى هيلبريدج. لقد مات في اللحظة التي بدأ فيها غلينارد انتقادها. لم تكن المشكلة أنها ملت غلينارد، بل أخطر من ذلك بكثير؛ لقد جعلته يشعر بدونيته. إحساس المساواة الفكرية كان يرضي طموحه الناشئ، لكن عندما

علم مواطن قدراته وقصوره، زاد فهمه إياها أيضاً. وإذا كان الرجل في بعض الأحيان يشعر بالثناء غير المباشر بفضل تفوق المرأة الأخلاقي، فإن تفوقها الفكري لا يخف أو يتأثر بمثل هذا الثناء على قدراته الشخصية. بذلُ الاحترام والتقدير دائماً أمرٌ مجهد، وعليه، ازداد رأي غلينارد رسوخاً في أن ذكاء المرأة لا ينبغي أن يكون أكثر من مكمّلٍ جمالَها. لا تستطيع السيدة أوبين أن تدّعي الجمال، لكنها تمتلك منه ما يكفي لإثارة استيائه بعدم قدرتها على الاستفادة منه لتبدو أكثر جمالاً. بدت تجهل تماماً أي حيل صغيرة تلجأ إليها النساء لإخفاء عيوبهن وحتى تحويلها إلى سحر. لم ترتدِ يوماً ملابس تشبهها، فجميع ملابسها تبدو غريبةً عليها كأنها ملابس شخص آخر اضطرت إلى استعارتها بسبب حالة طارئة تحولت مع الأيام إلى حالة مزمنة. كانت السيدة أوبين تعي عيوبها تماماً، ما دفعها إلى محاولة إصلاحها من خلال تقليد الأزياء الرائجة تقليداً متهوراً. لكن لا يمكن لأي امرأة لا تتمتع بحس الأناقة الأنثوي الفطري أن تصبح أنيقة بالتفكير المنطقي وحده. كانت محاولات السيدة أوبين لتكون أنيقة أشبه بالجمل الاعتراضية في متن النص، تفتقر إلى الانسجام أو الاتساق.

لا تنفع العبقرية امرأةً لا تعرف كيف تصفف شعرها. لم يبدّل غلينارد رأيه فيها مع الشهرة كلها التي حققتها بفضل كتابها الثاني، بل خلّفت في نفسه أثراً سلبياً دفعه إلى الانفصال العاطفي عنها. نحن جميعاً ألعوبة في يد الزمن، وقد رتّب القدر عمداً الأحداث في رواية مارغريت أوبين، إذ شعر غلينارد بأنه فقد صديقاً عندما توفي زوجها.

ليس من طبيعته أن يكون فظاً دون سبب، ومع أنه كان رجلاً قوياً متمكناً من نفسه، ولا يمنح المرأة أي حق محدد يمكن تمييزه سوى السماح لها بتوهّم أنه يحبها، فإنه لم يبرز هذه السمة فيه من خلال التجاهل المؤلم تحت أي ظرف كان. خلال العام الأول من حياتها بوصفها أرملة، تواصلا تواصلاً متقطعاً بما يكفي لعدم قطع حبل الودّ، وأصبحت علاقتهما أشبه بمأدبة مكتظة بأطباق فارغة دون أن تُرفع أغطيتها. ثم انتقل غلينارد ليعيش في نيويورك مستبدلاً بعلاقتهما الحميمة وسيلة جديدة نسبياً في التواصل وهي المراسلة. من الغريب أن رسائلها قرّبتها منه أكثر من وجودها الفعلي. نجحت في كتابتها في الحفاظ على أسلوب لطيف ودود لكن غير شخصي، كأسلوبه تماماً. كتبت بحماسة عن عملها وسألته عن عمله، حتى أنها مازحته بشأن الفتاة الجميلة التي لا مفرّ من ظهورها في حياته والتي ستؤثر في مستوى ثقته. بالنسبة إلى غلينارد، الرجل الذي لا يزال غريباً في نيويورك، كانت رؤية خطابات السيدة أوبين مثل صوتٍ يبعث بالطمأنينة في محيط لم يدركه تماماً بعد. أرضت تلك المشاعر التي رفضها قلبه في الماضي غروره، إلى درجة أن هذه العواطف المزيفة كانت تدفعه أحياناً إلى الذهاب إلى هيلبريدج، ثم العودة بعد لقاءات عدة تتخللها مشاعر مراوِغة دون أن يكون راضياً عن نفسه أو عنها. وبينما وجد لنفسه مكاناً في نيويورك وملأ فراغه بعلاقاتٍ تُتاح عادةً أمام الشبان اللطيفين الواثقين بذواتهم، افترض غلينارد أن استنتاجه أن السيدة أوبين ملأت الفراغ الذي خلّفه رحيله بالطريقة ذاتها، كان استنتاجاً طبيعياً. لكن عندما تنهار

الشراكات العاطفية، نادراً ما يتمكن كلا الشريكين من لملمة بقايا مشاعرهما في الوقت ذاته. أدرك غلينارد تدريجياً أنه الشخص الذي يقف ضمانةً للمغامرة التي راهنت فيها السيدة أوبين بكل ما تملك، وهو ليس نوع الدور الذي يرغب في تأديته. لم يرغب أن يخلّف وراءه خراباً أو دماراً، بل فضّل أن يزرع بذور النسيان في الفجوات التي أحدثها دون تفكير. لكن إن كان هو من سيزرع البذور، فمن البديهي أنّ على السيدة أوبين أن تعتني بالمحصول. يبدو أن موقفها أظهر بوضوح طريقة غلينارد في تغليب المنطق، حتى يمكن عدّهما تمثيلاً للتوفير والتبذير في مجاز العواطف.

لم يكن الأمر أن السيدة أوبين تسمح لنفسها بأن تعتمد على سخاء مشاعره. كان يعلم أنها لا ترغب في العيش على فتات المشاعر الهزيلة، بل كانت تتغذى على شغفها الذي أوقدته، ما منحها رفاهية جعلته يشعر، حتى في حينها، بأنها تحمل سراً يحوّل الندرة إلى وفرة بكيمياء سرية.

استمرت علاقتهما بهذه الطريقة الحساسة والسلبية المتقلّبة، إلى درجة أنها كتبت له فجأة تخبره عن قرارها السفر والعيش في الخارج. لم يتبقّ من عائلتها أحد في هيلبريدج بعد وفاة والدها، في وقتٍ برزت فيه لندن وجهةً تقدم مجالاً أوسع لتطور شخصيتها وتناميها، فقد أصبحت مشهورةً بالفعل، وعناقيد إبداعها تنتظر القطاف.

أثارت الأخبار غيرة غلينارد لحظةً تجاه فرصة سيخسرها. أراد تأكيد سلطته قبل أن تنفذ خطوتها الأخيرة وترحل، مهما كلف الأمر. كان قد مرّ على آخر لقاء بينهما أكثر من عام، لكنه

لن يسمح لها طبعاً بأن تبحر مسافرةً دون أن يراها. وصلت نيويورك قبل يوم من سفرها، وقضيا ساعاته الأخيرة معاً. لم تكن لدى غلينارد أي خطة محددة، بل كان ينوي ببساطة السماح لنفسه بالانجراف. انجرف كلاهما مدة طويلة في تيار الذكريات الساكنة. بدت كأنها تجلس هامدةً وهو يتحرك مستكشفاً مسارات الماضي المتشعبة. ذكّرته في النهاية بأن عليهما إنهاء استكشافهما، فنهض وهمّ بالمغادرة. لقد سئم منها، لطالما كان كذلك. ومع ذلك، لم يكن واثقاً بأنه يريدها أن ترحل.

- «قد لا أراكِ مجدداً»، قال وكأنه يخطب ودّ تعاطفها.

غمرته بنظرتها، ثم قالت:

- «لكنني سأراك دائماً... دائماً».

- «لماذا تغادرين إذن؟»، انفلت السؤال منه.

- «لكي أكون أقرب إليك»، كان وقع كلماتها أشبه بباب يوصد في وجهه.

بابٌ لن يُفتح مجدداً أبداً، لكن مع مرور السنوات ومن خلال الشق الضيق، شعر غلينارد بانسلال ضوءٍ لا ينطفئ أبداً، يوجه شعاعه نحو الماضي الذي لا يشغل سوى حيزٍ صغير من ذاكرته. لكن وخزة اللوم هذه كانت تتراجع مع كسب السيدة أوبين شهرة عالمية. ومع تحولها إلى شخصية عامة، لا يستطيع غلينارد الشعور باستعادة ذكراها كأنه يزور مقاماً مقدّساً خالداً بعد الآن، بل كأنه يزور مكاناً دنّسه التقديس الشعبي.

توالت رسائلها من لندن بدقة عاطفية، ولكن التغيرات التي طرأت على حياتها، والآفاق الجديدة للعلاقات التي تتكشف مع

كل عبارة جعلت قراءة رسائلها الشخصية أشبه بقراءة مقال صحفي. كان الأمر كأن ذلك البلد والعالم انتزعاها من بين يديه، وتوقعا منه أن يظل محافظاً على شعوره الذي استهلك رصيده الشحيح من القدرة على التواصل المتبادَل منذ مدة طويلة في الوقت ذاته.

أعمى الضوء المرتد من رسائلها بصيرة غلينارد عن فهم معناها المحدد. لم يكن رجلاً يهتم بالأدب، ولم تكن تلك الرسائل بالنسبة إليه في البداية سوى استمرار لأسلوبها الجميل في الكلام، إلى أن تحولت لاحقاً إلى وسيلة مخيفة لتحقيق مسعىً مؤلم. كان يعلم دون شك أنها رسائل رائعة، وأنها لا تشبه الكتّاب الذين يقدمون جوهر أعمالهم للجمهور ويحتفظون بالقشور لأصدقائهم، بل احتفظت السيدة أوبين برحيق روحها وأودعته صفحات رسائلها كأنه شراب فاخر مخصص لمراسم مقدسة. كان يشعر بالضيق والإهانة أحياناً بسبب كثرة تلميحاتها، وتنوع اهتماماتها، وإصرارها على بث فيض أفكارها في وعاء فكره الضحل. لكنه لم يفكر في الرسائل يوماً بطريقة موضوعية على أنها نِتاج امرأة مميزة، ولم يقدّر الأهمية الأدبية لِما بذلته من سخاء مرهِق. راعه حجم الثروة القابعة بين يديه الآن. لم يُثقل عليه الالتزام بحبها كما تفعل هدية خيالها وإبداعها هذه. بدا الأمر كأنه قبل منها شيئاً أغزر من أن يدّعي أنه يستحقه.

جلس مدة طويلة يحدق إلى الصفحات المتناثرة على مكتبه، وعندما تجلّى أمامه فجأة ما تعنيه هذه الرسائل، استطاع أن يتخيل عمليةً كيميائيةً تحولها إلى ذهب في أثناء تحديقه. راوده

شعورٌ بأنه ليس وحيداً في الغرفة، بأنّ هناك ذاتاً أخرى تراقب من الخارج حركة الدوافع اللا واعية التي أغرقته في جرعات من الإهانة. قام أخيراً قومة الرجل الذي يرغب في التعبير الواضح عن قصده، أو الذي يحاول إظهار تبرير أخلاقي لتلك الذات المراقِبة، فحمل حزمة الرسائل وتوجه صوب المدفأة. لكنّ حرق الحزم كلها سيستغرق وقتاً طويلاً، فاستدار عائداً إلى الطاولة ووضع الرسائل في الظروف واحدة تلو الأخرى، ثم ربط الحُزم وأعادها إلى الدرج المقفول.

الفصل الثالث

كانت إحدى العادات الثابتة في تعامل غلينارد مع الآنسة ترينت أنه دائماً ما يذهب لرؤيتها في اليوم الذي يلي يوم قراره تركها. كان هناك سحر خاص في تلك اللحظات التي تمتد بعد القرار الحاسم، وكان وعيه بأهميتها هذه المرة حاداً إلى درجة أنه بالكاد لاحظ الجدية الإضافية في ترحيبها به.

أصبحت مشاعره تجاهها جزءاً حيوياً منه، حتى أنّ قُربها يتمتع بقدرةٍ تجعله يغير رأيه دون أن يشعر، وترتب تشابكات حياته فجأة ضمن إطار منطقي. وفي ظل إعادة توزيع القيم وترتيبها، تتلاشى ذكرى الليلة السابقة الكئيبة لتصبح سحابةً في هامش وعيه. لعلّ الخدمة الوحيدة التي يمكن أن تقدمها امرأة غير محبوبة للرجل الذي تحب هي تعزيز خيالاته وإطالتها بشأن منافِستها. إنه مصير ذكرى مارغريت أوبين؛ أن تكون ظلاً يعزز سطوع الآنسة المعوزة ترينت التي لم تحظَ ببريق كهذا يوماً.

كان للآنسة ترينت سحر تجدده تيارات سريعة تجتاح سطح شخصيتها الهادئة. كانت تتعامل بهدوء وترو مع تصرفات الآخرين، وهو ما يمكن للمرء أن يلمسه في أوقات التوتر والاضطراب. مثّل هذا الهدوء الغامض نعمة بنظر غلينارد، فقد يكون التحفظ أحياناً لمجرد إعطاء انطباع بأهمية صاحبه، أو للتستر على بعض العيوب المحرِجة. لكنّ هدوء الآنسة ترينت كان أشبه بباب يُغلَق على محراب بالنسبة إلى غلينارد، وثقته بكشف الكنز المُخفى في قلب الصبية الغِرّة جعلته راضياً بالبقاء خارجه.

- «لم تأتِ إلى دار الأوبرا البارحة»، قالت ترينت بنبرة من يسجّل واقعةً لا من يُبدي ردّ فعل.

ردّ بإيماءة ممتعضة:

- «وما الفائدة؟ ما كنا لنستطيع الكلام؟».
- «أجل، هنا أفضل»، وافقته ثم أضافت بعد برهة صمت: «اضطررتُ إلى الحديث مع عمتي فيرجينيا بسبب تغيّبك».
- «بئساً»، قال غلينارد الذي لم تكن هذه الواقعة صادمة بما يكفي لتشتيت تأمّله يديها اللتين شبكتهما بطريقة تنمّ عن قدراتهما على التعبير والإبداع. يخيّل للمرء أن هاتين اليدين تتحركان لغرض معين فحسب، لكنهما قادرتان كذلك على الاسترخاء بوداعة وسكون.
- «تحدثنا طويلاً»، تابعت الآنسة ترينت، وانتظرت مرة أخرى قبل أن تضيف بنبرة هادئة لا يشوبها التوتر مع ازدياد الحديث جديةً: «تريد خالتي فيرجينيا أن أسافر معها إلى الخارج».

رفع غلينارد نظره إليها متفاجئاً وقال:

- «إلى الخارج؟ متى؟».
- «الشهر القادم. وسأغيب مدة عامين».

سمح غلينارد لنفسه بإظهار بعض السخرية الهادئة، وقال:

- «حسناً، أريدك أن تسافري إلى الخارج معي أنا، والمدة التي تريدينها. أي عرضٍ ستقبلين؟».
- «يبدو أن أحدهما يحتاج إلى تفكير فوري»، قالت مبتسمة.

نظر غلينارد إليها مجدداً وقال:

- «أتفكرين في عرضها حقاً؟».

أخفضت نظرها وأسبلت يديها. كانت حركاتها نادرة إلى درجة أنها تجعل كلماتها تبرز بروزاً واضحاً.

- «تحدثت معي الخالة فرجينيا بجدية مطلقة. سأخفف عبئاً كبيراً عن أمي والآخرين إذا رعاني أحدهم مدة عامين. لا بد أن أفكر في عرضها». نظرت إلى فستانها المجعد الذي يحمل ذكريات تعود إلى بداية علاقتها مع غلينارد ثم أكلمت القول: «أحاول ألا أكون عبئاً، لكنني كذلك».
- «يا إلهي»، تنهد غلينارد بحزن.

جلسا صامتَين إلى أن تابعت ترينت النقاش بهدوء:

- «بوصفي الأكبر سناً، أنا ملزمة بأخذ هذه الأمور في الحسبان. النساء عبء ثقيل. جيم يبذل أقصى جهده لرعاية أمنا، لكن ليس لديه كثير ليقدمه فهو يعيل أطفاله أيضاً. سنبقى فقراء كلنا إن بقينا معاً كما ترى».
- «خالتك ليست فقيرة، لمَ لا تساعد أمك؟».
- «إنها تساعدها لكن بطريقتها الخاصة».
- «بالضبط. هذا ديدن الأقارب الأغنياء. قد تعيشين كل ضروب التعاسة ولا بأس لديها في ذلك، لكن إذا أردتِ أن تكوني سعيدة، فيجب أن يكون ذلك على طريقتها وحسب مزاجها وأهوائها».
- «قد أكون سعيدة بالسير على مزاجها»، قاطعته ترينت.
- «أتقصدين في السفر إلى الخارج؟».
- «حيث أشعر بأنني أقدم المساعدة، وسفري معها سيكون نوعاً من المساعدة».

- «أجل بالطبع أرى ذلك، وأرى حرصك على ذكر مزايا السفر وتجنّب ما هو سلبي».
- «سلبي؟».
- «عندما تتجاهلين ما سيسلب السفر منك وتركزين على ما سيجلبه لك، فالخلاص من حياةٍ كهذه يعني كثيراً بالنسبة إلى امرأة مثلك بالطبع». لخص غلينارد بنبرة مهينة الخلفية التي جاءت منها ترينت، ثم أردف قائلاً: «السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف ستتقبلين العودة إلى حياتك هذه».

بدت أنها تتقبل استنتاجات أفكاره كلها، إذ قالت:

- «ما أعرفه أنني لا أحب التخلي عن حياتي هنا».
- «لكنك لا تضعين شروطاً بشأن السفر»، رد غلينارد متجهماً.

تعمقت نظرتها وهي تسأله:

- «عن أي شروط تتحدث؟».

نهض وسار عبر الغرفة، ثم عاد ووقف أمامها، وقال:

- «الشرط البديل للزواج بي».

احمرّت وجنتاها ببطء، وقد بدا هذا الاحمرار متعمداً، حتى وصل اللون أسفل عينيها. أرادت أن تحرك شفتيها لتنطق، لكن الكلمات تحولت إلى ابتسامة وهي تنتظر.

استدار مرة أخرى بخطوة يتداخل فيها الإحباط والتوتر، كأن الاستياء ينبعث من كل عضلة في جسمه ثم أردف قائلاً: «وخلال خمسة عشر عاماً أو أقل سأكون قد بنيت مستقبلاً رائعاً». رمقته بنظرات متفائلة. «لكن من نكد الدهر اللاذع أنني لا أهتم الآن بما قد أصبح عليه لاحقاً. إنها مجرد تضحية بحياتي من أجل

شخص غريب». أمسك بيديها بغتة وقال: «ستذهبين إلى كان أو مونتي كارلو أليس كذلك؟ سمعت هولينغزوورث يقول اليوم إنه ينوي أن يبحر بيخته إلى شواطئ المتوسط».

حررت يديها من قبضته، وقالت:

- «إن كنتَ تعتقد أنّ...».
- «لا أعتقد شيئاً. أتمنى لو كان ذلك حقيقياً، حينها سيكون من الأسهل أن...»، تقطعت كلماته وتاهت على شفتيه. «أعتقد أن خالتكِ فرجينيا تفكر بهذه الطريقة. إنها ترتبط بطريقة ما بهولينغزوورث والبحر المتوسط». أمسك بيديها مجدداً وتابع القول: «أليكسا، لو أن بوسعنا تأمين مأوى صغير في مكان ما خارج المدينة».
- «أيمكننا ذلك؟»، تنهدت وهي على وشك الاستسلام.
- «هناك في واحد من تلك الأماكن التي يطلقون عليها النكات بشأن البعوض». ألحّ في سؤالها: «هل يمكنك العيش دون الكماليات؟».
- «هل يمكنكَ العيش دون المظاهر؟».
- «عديني ألا ترحلي».
- «ما الذي يدور في ذهنك يا ستيفن؟».
- «لا أعرف»، تلعثم قائلاً، كأن السؤال وضّح نيته على نحو غير متوقع. «لا يزال كل شيء مجهولاً الآن، لكن وقعت يدي على معلومات مالية قيّمة ذلك اليوم...».
- «قل لي إنك لا تعمل في المضاربة»، صرخت مذعورة.

- «يا إلهي. بالتأكيد لا.. أعني لو أنني أستطيع فعلها...»، راودته فجأة رؤية لشمولية الغواية. لو أنه لم يثق بدينسلو ثقة كاملة.
- «لا أفهم ما تقول»، بالكاد خرجت الكلمات من فمها.
- «لا داعي لذلك، ثقي بي فحسب»، ردّ عليها مستجدياً، ثم استدار صوبها وقال مختتماً كلامه إثر طاقةٍ اندفعت فيه فجأة: «اعلمي أنك إذا رحلتِ، فلا شيء يجمعنا».

تراجعت إلى الخلف وقد شَحُبَ وجهها.

- «لماذا تصعّب الأمر عليّ؟».
- «لأهوّنه على نفسي».

الفصل الرابع

غادر غلينارد مكتبه في اليوم التالي في وقت أبكر من المعتاد، واتجه قبل ذهابه إلى المنزل إلى إحدى المكتبات العامة.

كان بمفرده في المكتبة في تلك الساعة قبل الإغلاق، إذ وجّه أمين المكتبة اهتمامه كاملاً ليلبي طلبه في الحصول على مؤلفات من الرسائل، فاقترح عليه قراءة رسائل هوريس وولبول.

- «أريد رسائل نسائية، هذا ما قصدته»، قال غلينارد.

اقترح أمين المكتبة رسائل الكاتبة هانا مور، والصحفية والفيلسوفة هاربيت مارتينو.

استاء غلينارد لأنه لم يعبّر عن طلبه كما يجب، فوضح قائلاً:

- «أعني رسائل موجهة إلى شخص واحد...إلى رجل... إلى زوج أو...».
- «فهمت»، قال أمين المكتبة. «رسائل إيلواز وأبيلارد».[1]
- «بل أريد شيئاً أقرب إلى عصرنا. ماذا عن رسائل ميريميه؟».
- «رسائل السيدة لم تُنشَر»، قال أمين المكتبة.
- «بالطبع لا»، قال غلينارد مستاءً من خطئه.
- «لدينا رسائل جورج ساند إلى فلاوبيرت».
- «هل كانت؟ ... هل كانا...؟»، تضايق غلينارد من جهله في الأدب العاطفي.

---

(1) شخصيتان تاريخيتان شهيرتان من العصور الوسطى، عاشا قصة حب تجسدت في رسائل غرامية تبادلاها وناقشا فيها الحب والدين والفلسفة والعاطفة والمعاناة. (المترجمة).

- «إذا أردت رسائل غرامية، فقد تلبي طلبك بعض المراسلات الفرنسية العائدة إلى القرن الثامن عشر، مثل مراسلات الآنسة إيسيه، أو السيدة دي سابران».

أصرّ غلينارد قائلاً وأمله يضعف:

- «بل أريد شيئاً حديثاً، إنكليزياً أو أمريكياً. أنا أبحث عن شيء معين».

لم يبق في جعبة أمين المكتبة إلا أن يقترح اسم جورج إيليوت.

- «حسناً، أعطني بعض الرسائل الفرنسية، ثم سأعود من أجل رسائل ميريميه عندما تُنشر. كانت امرأة من نشرتها أليس كذلك؟».

أخذ غلينارد كومة من الكتب وركب سيارةً أقلّته إلى منزله. تناول الطعام على عجل في مطعم قريب، ثم عاد وانكبّ على قراءتها.

في وقت متأخر من تلك الليلة، وبينما كان يخلع ملابسه، تساءل عن الدافع الحقير الذي دفعه إلى قول ما قاله لأليكسا ترينت في نهاية حديثهما. كان من السيئ بما يكفي أن يتدخل في فرص الفتاة وأن يحوم حولها على مرأى الرجال الآخرين. لكن الأسوأ من ذلك أنه كان يبرر ضعفه بتزيين المستقبل بأوهام مضللة. رأى نفسه يغوص في أعماق الجُبن العاطفي عميقاً لتردده في إرخاء قبضته عنها، وسربله عار الاشمئزاز من نفسه لأن أسمى العواطف التي اعتقد أنه قادر على منحها ما هي إلا مزيج من عناصر قذرة.

لم تحسّن رسالتها مزاجه بعد أن شظّاه هذا الإدراك. قرأ بضعة سطور، إذ لا تكتب عادةً أكثر من صفحة واحدة، ثم مزق الرسالة وحدسه ينبئه بشرٍّ قادم.

«ستسافر عمتي يوم السبت، ويجب أن أعطيها جوابي بعد يوم غد. أرجو ألا تزورني إلى حينها. أريد أن أفكر وحدي. أعرف أن عليّ الرحيل، ألا تساعدني وتتحلى ببعض المنطق؟».

حُسِم الأمر إذن، سيكون منطقياً ولن يقف عقبةً في طريقها. مضى عامان وهو يعيش حياة رجلٍ محظوظٍ آخر، لذا حان الوقت ليعود إلى حياته. تخلى عن التطلع إلى المستقبل ليحاول الخروج من متاهة مشكلاته المادية التي لا تنتهي. وأطبق عليه إحساس ثقيل بالتسليم كما الضباب الكثيف.

في وقتٍ متأخر من عصر ذلك اليوم، وفي أثناء نزوله من سيارة تقلّه، سمع غلينارد أحدهم يصيح: «مرحباً غلينارد».

رفع نظره، فرأى ابتسامة استفهامية تعلو وجه بارتون فلاميل الواقف على زاوية الرصيف يراقب السيارة المغادِرة بعين فيلسوف يدرك استمرارية حياة المدينة.

شعر غلينارد بالسعادة كحاله دوماً عندما يلتقي فلاميل، دون أن يخف شعوره بالسعادة بسبب الازدراء الذي يتبعه عادة. حتى قلة من الرجال الذين عرفوا فلاميل أيام شبابه، لم يستطيعوا تقديم سبب مقنع يفسر الشك الغامض الذي يخلّفه. يُقيّم فلاميل بعض الأشخاص بناءً على أفعالهم، والبعض الآخر بناءً على أفكارهم، ولعلّ أسرع طريقة لتعريف فلاميل هي القول إن نظرته التي تستصغر الآخرين تنبئ على نحو غامض بأنه ينظر إلى نفسه

بالطريقة ذاتها. قد يستاء ذوو التفكير الضيق من اكتشاف أن آراءه تجاه الآخرين مبنية على نظرته وتجاربه الشخصية. مع ذلك، لم توجه إليه هذا التهمة علناً، باستثناء الشك في كيفية سلوكه في الحالات الطارئة، كما يُنظَر إلى صحبته على أنها من المُتع المشبوهة التي قد يقع في شركها العقلاء حتى. لكن هذه الصحبة مثلت الآن مهرباً لغلينارد من التفكير في مشكلاته الأخلاقية التي لا يمكن إخفاؤها في وجود فلاميل.

- «إلى أين أنت ذاهب؟ إلى النادي؟»، سأل فلاميل ثم أضاف بعد أن وافقه غلينارد: «لم لا تأتي معي إلى الاستوديو؟ سترى شخصاً واحداً مملاً بدل عشرين في النادي».

لا تشبه الشقة التي وصفها على أنها استوديو أي شيء يتعلق بمكان عمل الفنانين عادةً. الشيء الوحيد الذي يبرر هذا التسمية هو وجود حامل رسم فارغ على نحو دائم، واحتلت باقي المساحة عناصر مختلفة تنم عن ذوق الهواة. في مقابل هذا الخلفية، التي بدت تعبيراً مرئياً عن انفتاح صاحبها الفكري، برزت صفوف من الكتب الجميلة التي بدا أنها استحوذت على اهتمام فلاميل تماماً.

نظر غلينارد بعين غير مدرّبة إلى صفوف الكتب المجلدة، وشُغل مضيفه بفتح زجاجة شراب.

- «لديك مجموعة رائعة من الكتب».
- «إنها كذلك فعلاً»، علّق فلاميل بنبرة تشوبها مسحة من التواضع خشية الانغماس في الحديث عن شغفه.

وبينما راح غلينارد يتجول بين صفوف الكتب ضَجِراً وواضعاً يديه في جيبيه، لم يستطع فلاميل منع نفسه من الاستفاضة فقال:

- «بينما يرى البعض الكتب على أنها مجرد أدوات عملية تقضي غرضاً محدداً، يراها البعض الآخر قطعاً فنية. أنا في مكان بين الاثنين، أستخدمها أحياناً مجرد زينة، وفي أحيان أخرى أراها جليساً فكرياً. وكما ترى، فإن مكتبتي تمثل حلاً وسطاً في الشكل والمضمون، لذا ترى جامعي الكتب والطلاب ينظرون إليّ نظرة الازدراء بالقدر ذاته».

لم يردّ غلينارد على كلام فلاميل، فقد كان يأخذ الكتب واحداً تلو الآخر من على الرفوف ويفتح صفحاتها بصمت إلى أن وقعت يده على مجلد قديم يضم مخطوطة باهتة.

- «ما هذه؟»، سأل بفتور.
- «أرى أنك وصلت إلى رف المخطوطات. لم يُثر هذا المجال اهتمامي إلا مؤخراً». اقترب ونظر من فوق كتفي غلينارد. «إنها جزء من رواية ستاندال، واحدة من القصص الإيطالية، وهنا بعض رسائل بالزاك إلى السيدة كومانفيل».

أمسك غلينارد بالكتاب بلهفة مفاجِئة وسأل:

- «ومن تكون السيدة كومانفيل؟».
- «أخته». كان يدرك أن فلاميل ينظر إليه بابتسامة استفهامية. «لم أكن أعرف أن لديك اهتماماً بأشياء كهذه».
- «لم أكن مهتماً، أو لم تُتَح لي الفرصة بالأحرى. هل لديك كثير من هذه الرسائل؟».
- «بالكاد لدي بعض منها. لا زلتُ في البداية ومعظم الرسائل المميزة بعيدة المنال. لكن لدي مجموعة صغيرة وغريبة هي أثمن ما أملك؛ نصف دزينة من رسائل شيلي إلى هاريت

ويستبروك. عانيت حتى حصلت عليها لأن كثيراً من الجامعين كانوا يسعون إلى اقتنائها».

أخذ غلينادر المجلد من يد فلاميل وقال وهو يقلب الصفحات الصفراء بنوع من الاشمئزاز:

- «أليست تلك التي انتحرت غرقاً؟».

أومأ فلاميل برأسه موافقاً وأضاف:

- «أعتقد أن هذا التفصيل وحدَه يضيف نحو خمسين بالمئة من قيمتها».

وضع غلينارد الكتاب جانباً، وتساءل لماذا انضمّ إلى فلاميل، إذ لم يكن في مزاج يسمح له بالاستمتاع بحديث الرجل الأكبر سناً. شعر غلينارد مجدداً بموجة بؤس تجتاحه مثل مدٍّ جليدي.

- «أعتقد أن عليّ الذهاب، نسيت أن لدي موعداً».

في اللحظة التي استدار فيها ليذهب، وقع فريسة دافعَين يتنازعانه، إذ إن ظاهر رغبته في المغادرة كشف آخر محاولاته للصمود أمام الرغبة القوية في البقاء والاستجابة لِما تنازعه به نفسه، والاعتراف لفلاميل بما يدور في رأسه.

بدا فلاميل مدركاً الصراع الداخلي الذي يعيشه غلينارد، فأمسك بذراعه وقال له:

- «بإمكان موعدك الانتظار. اجلس وجرب هذا السيجار، فلا أعرف متى يحالفني الحظ وأراك هنا مجدداً».

- «يجب أن أغادر الآن»، غمغم غلينارد، لكنه وجد نفسه يجلس مجدداً، وقد وضع فلاميل إلى جانبه طاولة عليها زجاجة الشراب.

جلس فلاميل في كرسيه المريح وتفحّص غلينارد من خلف سحابة الدخان بأريحية شخصٍ لا يحتاج إلى تفسير أي من المتناقضات. ساد جو من التفاهم الضمني، جو من النوع الذي تفقد فيه الأفعال المخزية حدّتها، فشعر غلينارد بتوتره يخف تدريجياً.

- «أعتقد أنك تدفع مبالغ كبيرة لقاء اقتناء أشياء كهذه»، سمع غلينارد نفسه يسأل فلاميل وهو يلقي نظرة نحو المجلد الذي وضعه جانباً.
- «الأمر يختلف تبعاً للظروف»، نظر فلاميل إليه بتأن وأردف قائلاً: «هل تفكر في أن تصبح جامِعاً؟».

ضحك غلينارد وقال:

- «كلا، بل العكس تماماً».
- «أتفكر في البيع؟».
- «لا أعرف بالضبط. أفكر في رجلٍ مسكين...». ملأ فلاميل الصمت بإيماءة اهتمام. «رجلٌ كنت أعرفه...ومات... مات العام الماضي وترك لي رسائل كثيرة، رسائل ينسب إليها قيمة كبيرة، وترك لي حرية التصرف فيها. كان يعتقد أنها قد تفيدني بطريقة ما. لا أدري، لست متمكناً من هذه الأمور كثيراً». مدّ غلينارد يده وتناول الكأس التي ملأها مضيفه.
- «أهي رسائل كتبها أشخاص معروفون؟ هل من أسماء؟».
- «هناك اسمٌ واحد فقط. الرسائل كلها موجهة إليه. وقد كتبها شخص واحد، امرأة في الواقع، أتفهم؟».
- «امرأة!»، قال فلاميل بفتورٍ واضحٍ أزعج غلينارد.

- «أعتقد أنها ستستقطب اهتماماً كبيراً إذا نُشِرت»، أضاف غلينارد.

قال فلاميل بالفتور ذاته:

- «رسائل حب على ما أعتقد؟».
- «إنها رسائل تكتبها امرأة لرجل تعرفه جيداً. لقد كان كلاهما صديقين رائعين».
- «ما المميز في هذه الرسائل؟».
- «كتبتها مارغريت أوبين».

ابتلع الجو صمتٌ عظيم. خُيّلَ إلى غلينارد أنّ كلماته انطلقت من فمه كاندفاع الدم من جرح مفتوح.

- «يا إلهي!»، صاح فلاميل وهو ينهض. «مجموعة من رسائل مارغريت أوبين؟ هل قلتَ إنها بحوزتك؟».
- «أجل. تركها لي صديقي».
- «هل كان...؟ حسناً لا يهم ما قد كان. أنت تستحق التهنئة. ما الذي تنوي فعله بها؟».

نهض غلينارد وشعر بوهن في عظام جسمه كلها. أجاب قائلاً:

- «لا أدري. لم أفكر في الأمر كثيراً، لكن رأيت إعلاناً نشره شخص يكتب سيرة حياتها».
- «أجل إنه جوسلين. أنت لا تفكر في إعطائه الرسائل أليس كذلك؟».

سار غلينارد عبر الغرفة وراح يشاهد تمثالاً برونزياً كلّ الغار رأسه وانتصب فوق خزانة إيطالية، ثم قال لفلاميل:

- «ماذا يجب أن أفعل؟ إن كان من أحدٍ ينصحني فهو أنت». شعر بالدم يتصاعد إلى وجنتيه وهو يتحدث.

جلس فلاميل مفكراً، ثم سأل غلينارد:

- «ما الذي تريد أن تفعله بها؟».
- «أود لو أنشرها إن استطعت»، أجاب غلينارد وقد راودته حماسة مفاجئة.
- «إن استطعت؟ الرسائل ملكك كما قلت».
- «إنها ملكي بالتأكيد، ولا يوجد أحد يمنعني... أعني ليست هناك قيود...»، توقف غلينارد، إذ أدرك أن هذه الأدلة المتراكمة التي تسهّل خطوته قد تكون بالضبط العائق الأقوى أمامها.
- «وليست لدى السيدة أوبين عائلة أو أقارب كما أعلم».
- «لا».
- «لا أرى مانعاً إذن»، قال فلاميل وهو يتفحص عقب سيجاره، وحول غلينارد نظرته الهائمة صوب لوحة القديسة كاترين المتأملة والمحاطة بإطار من ذهب.
- «الأمر وما فيه...»، بدأ غلينارد حديثه مجهداً، «أن الرسائل عندما تكون شخصية مثل رسائل صديقي... حسناً، لن أخفي عنك أن المال سيُحدِث فرقاً كبيراً في حياتي، وسيشوش أيضاً على حكمتي في تقدير الأمور. الحقيقة هي أنني إذا تمكنت من الحصول على بضعة آلاف الآن، يمكنني الانخراط في مشروع كبير دون أي مخاطرة واضحة، وأود لو أعرف إذا كنتَ تعتقد أن تصرفي سيكون مُبَرراً في ظل هذه الظروف...»، توقف وقد جفّ حلقه. شعر بأنه في تلك اللحظة لن يهوي إلى قاعٍ أسفل مما هو فيه الآن. ما ساءه حينها هو التنازل عن مبادئه أمام رجل مثل فلاميل، أكثر من خجله من أنه

يناقش صفقة، وتصنّعه مشاعر رقة يعي تماماً أنه لا يمتلكها. لكنه وصل إلى نقطة في حديثه حيث كل كلمة تدفعه إلى قول كلمة أخرى، تماماً كما تندفع كل موجة في النهر إلى الأمام تحت ضغط الموجة التي تليها. «هل تعتقد أن الناس سيتحدثون... أو ينتقدون الرجل؟».

- «لكنه ميت، أليس كذلك؟».
- «أجل إنه ميت، لكن هل يمكن تحميلي المسؤولية دون...».

تردد فلاميل لحظة، تحول خلالها تردد غلينارد إلى استياء. كان فلاميل بنفسه أظهر تردداً في تلك اللحظة!

لكن الرجل الكبير طمأنه قائلاً:

- لماذا تفترض أن أحداً قد يحمّلك المسؤولية؟ لن يظهر اسمك، ولا داعي لظهور اسم صديقك أيضاً. لم يكن شخصية مشهورة أليس كذلك؟».
- «لا».
- «إذن، يمكن توجيه الخطاب في الرسائل إلى السيد بلانك. ألا تجعل هذه الصيغة الأمر مقبولاً؟».

عاد غلينارد إلى تردده وقال لفلاميل:

- «ستكون مقبولة للجمهور أجل، لكن ذلك لا يغير في الأمر شيئاً بالنسبة إليّ. السؤال المطروح؛ هل يحق لي نشرها أصلاً؟».
- «لك كل الحق طبعاً»، قال فلاميل وقد ملأته الحماسة. «سأشك في مبرراتك عدم نشرها. إن كل ما يتعلق بمارغريت أوبين أصبح ملكية عامة تقريباً. إنها أعظم من أي أحد منا. أتساءل عن كيفية استفادتك منها إلى أقصى حدّ، أقصد

بالنسبة إليك طبعاً. كم رسالةً لديك؟».

- «لدي رسائل كثيرة، ربما مئة. لم أعدها، وقد تكون أكثر من ذلك».
- «يا إلهي! يا لها من غنيمة. متى كتبتْها؟».
- «لا أعلم. لقد تبادلا الرسائل على مدى سنوات. ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟»، تحرك نحو قبعته المعلقة يحثه دافع غامض إلى الهرب.
- «الفرق كبير»، قال فلاميل بثبات. «المراسلات الطويلة، أعني تلك التي تغطي مدة زمنية طويلة، تستحق أكثر مما لو كان العدد نفسه من الرسائل قد كُتِب خلال عام واحد. هل ستعطيها لجوسلين؟ قد تملأ كتاباً أليس كذلك؟».
- «أظن ذلك. لكن لا أعرف بالضبط كم تحتاج لملء كتاب».
- «هل هي رسائل غرامية؟».
- «لماذا؟»، صاح غلينارد.
- «على رسلك، الأمر فقط أن الجمهور بغالبيته يحب الرسائل العاطفية، فإن كانت كذلك، يمكنك الحصول على أي مبلغ مالي مقابل رسائل الحب التي كتبتها مارغريت أوبين».

رنا غلينارد إلى الصمت.

- «هل مضمون الرسائل بحد ذاته مثير للاهتمام؟ أعني بغض النظر عن ارتباطها باسمها».
- «أنا لست ناقداً»، قال غلينارد وهو يأخذ قبعته وينسل داخل معطفه. «قد ألا أفعل بها شيئاً. وأنت يا فلاميل، لا تأتي على ذكرها لأحد».

- «بالطبع لا. أهنئك على كل حال، فأنت تمتلك شيئاً قيماً للغاية»، قال فلاميل مبتسماً.

كان غلينارد قد وصل إلى عتبة الباب، وأجبر نفسه على الرد على ابتسامة فلاميل بنبرة لا مبالية قائلاً:

- «أتقصد أنه قيّم من الناحية المالية؟».
- «أجل، يمكنني قول ذلك».

توقف غلينارد وهم يمسك بمقبض الباب وقال:

- «كم تساوي باعتقادك؟ فأنت ضليع في هذه الأمور».
- «حسناً، يجب أن أرى الرسائل أولاً؛ لكن يمكنني القول، إذا كان لديك ما يكفي لملء كتاب، وإذا كانت قابلة للقراءة جيداً، ونُشِر الكتاب في الوقت المناسب، ستجني نحو عشرة آلاف مقدماً من الناشر، وربما ألفاً أو اثنين آخرين من العائدات. لكن إن تمكنت من جعل الناشرين يتنافسون للحصول عليها، فستجني مزيداً. لكنني لست متأكداً تماماً».
- «بالطبع»، قال غلينارد وقد شعر بالدوار فجأة حتى أنه يده انزلقت عن المقبض فراح ينظر إلى الأنماط الشرقية المبهجة للسجادة الفارسية تحت قدميه.
- «يجب أن أرى الرسائل»، كرر فلاميل.
- «بالطبع... يجب أن ترى الرسائل»، تمتم غلينارد قائلاً. ودون أن يلتفت خلفه ناحية فلاميل، تلعثمت شفتاه بكلمة «وداعاً».

الفصل الخامس

بدا المنزل الصغير الذي يتجول غلينارد حوله بين الأشجار أشبه بخيمة رحلات جميلة نُصبت قبالة الشمس، يكللها رونق ثوب صيفي جديد. كانت أزهار إبرة الراعي تتراقص على الشرفة بتناغم يشبه تناغم الزهور التي تزين القبعات. وكانت الحديقة تشتعل ألقاً على نحو مذهل، فالبذور التي زرعها وزوجته عشوائياً وسط تبادل المزاح والاتهامات بقلة الخبرة، نمت بتحدٍّ عَطرٍ للأخطاء التي ارتكباها. ابتسم غلينارد عند رؤية زهرة الياسمين تفرد جناحيها حول الردهة. وبدت الأعشاب الصغيرة ناعمةً كخد حليق، وارتقى عنقود الورود القرمزي إلى نافذة غرفة طفل بدا أنه لم يبكِ يوماً. داعبت نسمة عليلة غطاء طاولة الشاي، وظهرت زوجته تتفقد إبريقاً يكاد يغلي. أوحى المشهد كاملاً واضحاً بسعادة غامرة مثل مشهد مسرحي، فلم تكن رؤيتها تتمايل بين الزهور تنشد سعادتها النقية من الشرفة أمراً غريباً.

كانت حرارة نهار البلدة الطويل وغبار ازدحام قطار الضواحي خلفيةً لازمة لأمسياتهما المشبعة بالنسمات المنعشة والمحادثات الهادئة. مضى عام ونيّف على زواجهما، ولا يزال انتعاش يومهما الأول معاً يرافق أيامهما. ولم يعكر صفو سعادتهما سوى ضجيج محيطهما. فكان حبهما لا يزال يانعاً فتيّاً كخيمة رحلات جميلة.

نظرت أليكسا إليه مبتسمةً. لقد ناسبتها الحياة الريفية، فقد كسب جمالها عمقاً بفضل الهدوء الذي يمكن أن تكفهرّ له بعض الوجوه.

- «هل أنت متعب؟»، سألته وهي تصب له الشاي.

«متعب بما يكفي للاستمتاع بهذا»، قال ثم نهض من كرسيه، وانحنى فوق الصينية لأخذ الكريمة. «هل زارك أحد اليوم؟»، سألها وقد لاحظ الكوب نصف الفارغ إلى جانب كوبها.

- «السيد فلاميل فقط»، قالت دون اكتراث.

- «فلاميل؟ مرة أخرى؟».

- « لقد غادر التوّة. أرسى قاربه في خليج لوريل واستعار عربة السيد دريشام ليأتي إلى هنا»، أجابت دون مبالاة.

لم يُدلِ غلينارد بأي تعليق، فواصلت حديثها وهي تميل برأسها إلى وسادات مقعد الخيزران: «يرغب في اصطحابنا في رحلة بحرية يوم الأحد المقبل».

حرك غلينارد شايه بتأنٍ وهو يفكر في رد طبيعي غير مُصطنع، فبدا صوته غريباً، كأنه يتحدث من خلف دمية متحركة:

- «هل ترغبين في ذلك؟».

- «كما تشاء»، قالت بمرونة.

لا يمكن أن يكون هناك تظاهر بالـلا مبالاة أكثر إرباكاً من مرونتها. بدأ غلينارد يشعر في الآونة الأخيرة بأن النافذة التي عدّها قبل عام واجهة زجاجية شفافة واضحة هي مرآة تعكس تصوّره الشخصي عمّا يكمن وراءها.

- «هل يروق لكِ فلاميل؟»، سألها فجأة وهي لا تزال مشغولة بالشاي، فردت بإجابة أنثوية:

- «أعتقد أنك معجب به».

- «معجب به بالطبع»، أجابها وقد تملّكه الاستياء من ميله العنيد إلى تعظيم أهمية فلاميل بالتحدث عنه باستمرار، ثم تابع القول: «ستكون الرحلة البحرية ممتعة، فلنذهب».

لم تقل أليكسا شيئاً، فأخرج الصحف المسائية الملفوفة التي كان قد وضعها في جيبه في أثناء مغادرته القطار. وراح يقلب صفحاتها كالمعتاد، فأجال نظره على قائمة الأسهم، وتلاشت شخصية فلاميل المتطفلة خلف الأخبار الجيدة التي تحملها الصحف، فقد كانت استثمارات غلينارد تزدهر تماماً مثل حديقته، فالأسهم الجافة أصبحت تُزهر أرباحاً ومحصولاً ذهبياً ينتظر مِنجلَه.

نظر إلى زوجته بهدوء الرجل الذي يجتذب الحظ السعيد، تماماً كما تمتص التربة الجافة المطر.

- «تسير الأمور على نحو رائع للغاية. أعتقد أننا سنكون قادرين على الذهاب إلى المدينة شهرين أو ثلاثة في الشتاء المقبل، في حال تمكنا من العثور على منزل رخيص».

ابتسمَت بفرح وقالت وهي تحاول موازنة إيجابيات الأمر وسلبياته:

- «قول ذلك رائع، لكنني قلقة بشأن الطفل. وفي حال قررنا الذهاب، فإن كيت إرسكين ستسمح لنا بالإقامة في منزلها مقابل أجر زهيد».
- «حسناً، اكتبي لها بهذا الخصوص إذن»، قال ذلك ثم جالت عيناه بحثاً عن تقرير حالة الطقس، لكنه قلب الصفحة الخاطئة، وانبثق فجأة أمام ناظريه سطر من الكلمات الواضحة، كأنما نصبت له فخّاً.

«رسائل مارغريت أوبين».

«مجلدان اثنان. صدرت اليوم خمسة آلاف نسخة من الطبعة الأولى، وقد نفدت قبل إخراجها من دار النشر. ستكون الطبعة الثانية جاهزة الأسبوع المقبل. إنه كتاب العام...».

رفع ناظريه وقد اعتلت وجهه ملامح الغباء من المفاجأة غير المتوقعة. كانت زوجته لا تزال جالسة برأسها المحنيّ إلى الخلف، إذ غلب نقاء ملامحها خشونة الوسائد، واعتلت ابتسامة ناعمة مُحياها، بفعل الآفاق التي فتحتها كلماته الأخيرة. امتدت خلفها أشرعة من الشمس والظل عبر الستار المخطط، وأخفى صفٌ من أشجار القيقب، وسور من الزيزفون سقوف جيرانهما، ما منحهما ملكية خاصة لنصف فدان من الأرض المشجرة. كانت الحياة قبل لحظة تشبه قطعة الأرض الخاصة بهما، معزولة، محصنة ضد المتطفلين، ولا يمكن اختراقها. أما الآن، فقد شعر بأن أوراق القيقب وبراعم الزيزفون تراقب خصوصيتهما من كثب، وكأنهما جالسان في غرفة مضاءة بنور ساطع، مكشوفة أمام أعين الظلام الذي يعجّ بالمتطفلين. لا تزال الابتسامة مرسومة على وجه أليكسا، إذ لا تعي هذه الفراشة خطر الضوء المحدق.

لم يكن غلينارد يُدرك أن الأمر سيؤول إلى ما آل إليه، فبعد مرور الأسابيع الثقيلة الأولى التي قضاها في إعداد الرسائل لتكون جاهزة للنشر وتقديمها لفلاميل والتفاوض مع الناشرين، حشر غلينارد الصفقة في زاوية مظلمة من ذهنه، زاوية يجمع فيها المهمات التي لا رغبة له في تأديتها، مع إدراكه ضرورة تنفيذها. بالإضافة إلى أنه ومنذ اللحظة التي حصل فيها على وعد الآنسة

ترينت بعدم الإبحار مع عمتها، عدّ نفسه ملتزماً بشكل لا رجعة فيه، وقرر أن أولى خطوات التزامه ستبدأ من التزامه بها، فقد أضحت ترينت صوت ضميره الحي. حقق المبلغ الذي حصل عليه من الناشرين عن طريق مراوغات فلاميل الذكية، وتحويله في التوقيت المناسب إلى مشروع دينسلو الناجح، عائداً جيّداً، إضافة إلى أرباح غلينارد من عمله، ما جعل حياتهما أكثر راحة وأقرب إلى البساطة الأنيقة، إذ أضحى باستطاعتهما الاشتراك في بعض النشاطات الثقافية البسيطة ووضع بعض الزهور على طاولة العشاء. وبالفعل، بدأ غلينارد يشق طريق النجاح رويداً رويداً، فقد راح العملاء الذين مرّوا يوماً ببابه دون أدنى اهتمام خلال أيام فقره، يبحثون عنه بعد أن أصبح رجلاً ناجحاً. ساد الاعتقاد أن مصدر ثروته ميراث صغير استُثمر بذكاء، وأن الرجل الذي يمكنه أن يستثمر أمواله بنجاح قادر على إدارة أموال الآخرين.مكتبة سُر مَن قرأ

زادت سعادةُ أليكسا طعمَ نجاحه لذّة وحلاوة، فقد عاشا أوقاتاً صعبة مقارنة بحياتهما الجديدة المريحة. اندمجت زوجته في الحياة الجديدة دون أي محاولات واضحة للتكيف أو التعديلات التي تجرح كرامة زوجها، كتعديلات أثاث المنزل. لكنها بدلاً من ذلك، منحته السعادة المطلقة بمشاهدتها وهي تستعيد متعتها وغرورها الفتيّ، وتمد أذرع الأمل والطموح التي تزهر مع الفرص الجديدة. وبطريقة ما، ومن الزنزانة الداخلية المظلمة حيث يختبئ جلد الذات، شرَعت غاية غلينارد المادية تبرر وسيلته. ولكن.. كيف للتربة الملوثة أن تعطي محصولاً نقياً؟

شعر غلينارد بأظفار صفقته الخاسرة تخدش مؤخر عنقه. لم يكن يعلم أن الأمر سيسير على هذا النحو، فاستشاط قلبه غضباً، لكن ممن؟ من زوجته لعدم معرفتها ما يعانيه، أم من فلاميل الذي لم يكن سوى أداة بريئة لتنفيذ جُرمه، أم من تلك الذاكرة البكماء التي أعطاها فعله الشنيع الفرصة لتصرخ في وجهه صرخة الاتهام؟ أجل، إنها ذاكرته. وستكون عقوبته من الآن فصاعداً حضور المرأة التي كان يتجنبها بشدة، حضورها العنيد الثابت، كأنه تزوج بها بدلاً من أليكسا. لطالما أرادت أوبين أن تكون معه، وها قد تحقق مرادها أخيراً.

استفاق غلينارد من شروده بحركة مفاجئة كمن يريد الهروب. لفتت حركته المفاجئة انتباه زوجته، فسألته دون مبالاة وكأن حياة الرخاء سرقت اكتراثها:

- «هل هناك أخبار جديدة؟».
- «لا، لا شيء»، أجاب وقد تسلل إليه الشعور بالخطر، فالصحف متناثرة على حجره. ماذا إن رأتها؟ شرع يجمعها، لكن أفكاره أعلنت عبثية إخفائها، فالصحف كلها ستنشر الإعلان كل يوم أسابيع عدة، فلا سبيل لمنعها من رؤيته، ولن يستطيع إخفاء الصحف عنها دائماً. حسناً، وماذا إن رأتها؟ لن يعني ذلك شيئاً بالنسبة إليها، وقد لا تقرأ الكتاب أبداً. بدأت المسافة بينهما تتقلص بانقضاء خوفه منها، فأعادها مجدداً إلى دائرة حمايته الزوجية. شعر في اللحظات السابقة بأنه يكرهها، فضحك بصوت عالٍ من خوفه السخيف، في مشهدٍ يصور فقدان توازنه العاطفي.

- «علام تضحك؟»، سألته زوجته.

برر غلينارد ضحكه أنه تذكر سيدة عجوز في القطار، لم تستطع إيجاد تذكرتها بسبب حملها حقائب كثيرة. ورغم استفاضته في شرح القصة، فإن المرح بدأ يتلاشى، وتقلصت ابتسامة زوجته. ثم نظر إلى ساعته وقال:

- «ألم يحن الوقت لنرتدي ملابسنا؟».

نهضت زوجته بهدوء وقالت:

- من المؤسف أن ندخل المنزل الآن، فالحديقة تبدو رائعة».

وقف الاثنان جنباً إلى جنب يتأملان حديقتهما التي لم تحتضن في تلك الساعة ظل شجرة البلوط كاملاً من زاوية السياج، فظلّلَ نصفَها حوض الزهور، وامتد إلى طرف المنزل حتى نافذة غرفة الأطفال. انحنت زوجته لتنتزع دودة الزهور من على نبتة العسلية، وعندما دلفا إلى الداخل قالت:

- «ألا يجب أن تُعلم السيد فلاميل في حال قررنا الذهاب في رحلة اليخت يوم الأحد المقبل؟».

تبدّل سخط غلينارد فجأة. «سأعلمه بالطبع. يبدو أنكِ في قلق دائم من أنني سوف أُسيء التصرف مع فلاميل».

واجهَت كلماته بالصمت، إذ أعطته المساحة ليتأمل غباءه بهدوء. استدار غلينارد صاعداً السلم، ثم جلس في الكرسي أمام طاولة التزيين، متأملاً حجم الذل الذي تجرّعه خلال الساعة السابقة، فقد واجه أقصى درجات المهانة، باضطراره مُكرهاً إلى التعامل بلباقة مع بارتون فلاميل مدى الحياة.

الفصل السادس

عاشت البلدة أسبوعاً حاراً ومشمساً، وامتلأت كراسي اليخت بالرجال الذين تمددوا بخمول في ملابسهم المريحة البيضاء والداكنة، وهم يتتبعون تحركات النساء من بين دخان سجائرهم. كانت حفلة صغيرة، إذ لم يكن لدى فلاميل سوى قلة من الأصدقاء المقربين، لكنها كانت أكثر تنوعاً وغنى من التجمعات الاجتماعية المعتادة. ولّد الحدث الأهم في حياة غلينارد سابقاً شعوراً بالنفور والاضطراب تجاه أي نوع من البروز والظهور الشخصي، فالذكاء بالنسبة إليه نافعٌ في الأعمال التجارية، ولكنه عديم الجدوى في الحياة الاجتماعية، وأشبه بالشلالات الزائفة التي يمكن أن تُشكَّل من جدول ماء يُستخدَم لتشغيل مطحنة. كان يفضّل وزوجته الرؤية الجماعية التي تتوافق مع التوحيد المتحضر للملابس الرسمية. ومع ذلك، وجدا نفسيهما ينزلقان تدريجياً نحو ذوق فلاميل. ذكرت أليكسا في مناسبات عدة أنها تستمتع بمقابلة الأشخاص الأذكياء، لكن استمتاعها يتجلى في ابتسامة عابرة بدل الشعور بالحماسة فعلاً. فضلاً عن أن غلينارد كان يفضل الأشخاص الذين يتركون للمجتمع مهمة التفكير والتقرير نيابة عنهم.

كان سطح اليخت ملاذاً لطيفاً من حرارة الشاطئ. وجد غلينارد في ملامح زوجته النقية المنسجمة مع اللون الأزرق المتغير مصدر راحته. لم يبهره قبلاً هذا الكمال الذي سما بجمالها فوق تأثيرات جمال النساء العابر، فأكثر الوجوه تناسقاً تبدو تجميعاً عرَضياً للملامح مقارنةً بوجهها.

كانت السيدات اللاتي استدعَين هذه المقارنة من النوع الذي لا يخشى المخاطرة بل ويصلن مبتغاهنّ على إثرها، فالسيدة آرميجر بدت الخيار المفضل والمتفوق بالنسبة إلى أولئك الذين لا يستطيعون «رؤية» جمال أليكسا غلينارد. أما السيدة توشيت، فقد كسبت التقدير والاحترام بسبب قدرتها على إدارة أموالها وممتلكاتها وتوزيعها بطريقة تثير إعجاب الأشخاص الذين يقدّرون المجتمع الراقي. كانت السيدة دريشام الضلع الثالثة في هذا المثلث الذي لم يحبذ غلينارد التعامل معه، وكانت مُلزَمة بدعم ما تقوله السيدتان الأخريان نتيجة ظروف معينة. نجحت السيدة دريشام، وهي زوجة محرر مجلة «راديتر»، في إنقاذ نفسها من العزلة الاجتماعية عبر الترويج لآراء زوجها واهتماماته. ولما كان وقت السيد دريشام مكرساً لدعم النساء المميزات، فإن زوجته شملت نفسها بصفة التميز والظهور أيضاً. أما بالنسبة إلى الملل الذي يمكن أن يصيبها نتيجة هذه الواجبات، فقد كانت السيدة دريشام تعوض نفسها مشقة هذا الواجب بحقيقة وجود أشخاصٍ يرونها مميزة، ولعل هؤلاء الأشخاص أنفسهم يرافقونها ليصيبهم شيء من تميزها. أما بقية السيدات الأخريات في المجموعة فلم يثرن أي اهتمام، وفضّلن عدم خوض المحادثات الفردية والمحافظة على غموضهن.

تمثل السيدة آرميجر أحدث تجسيد لغرائز دريشام نحو السيدات المميزات، فقد كانت جميلة وبريئة، لكنها ظلت سنواتٍ طويلة شخصاً مملاً بين أناسٍ باتوا يمقتون أنفسهم الآن لعدم تقديرهم إياها قبلاً. تحولت السيدة آرميجر إلى «امرأة مثقفة»

بفضل توجيهات السيد دريشام وإرشاداته، فأصبحت تقرأ مقالاته في مجلة راديتر، وتشتري الكتب التي ينصح بها، وأصبح الناس يرغبون في معرفة رأيها عند ظهور رواية جديدة، حتى أن شاباً ذهب في رحلة استكشافية إلى منطقة تورين، قدم لها خلاصة رحلته واستكشافاته ضمن مجلدٍ لتقرأها.

كان غلينارد يستند بظهره إلى حاجز في اليخت، محتفظاً بين جفنيه نصف المغلقين بصورة البحر الأزرق. تمنى لسبب ما ألا تُفسد زوجته وقت ما بعد الظهر بالحديث مع الناس. ومع أنه حاول ضبط انزعاجه بعدم الاستماع لما يُقال، لكنه ينزعج من الكلمات العبثية بشكل عام.

كان صمت زوجته بالنسبة إليه الرد الأكثر حيوية على استخدام الكلام التافه بوصفه وسيلة للتواصل، فنظر نحوها مؤكداً تقديره هذه المزيّة الرائعة. لكنه تنبّه لعدم الاستهانة بالكلمات وقدرتها على التأثير عندما صدح صوت السيدة آرميجر وهي تسأل زوجته:

- «من المؤكد أنكِ قرأتِه يا سيدة غلينارد أليس كذلك؟»، كان سؤالها رداً على استفسار غامض من أليكسا: «لماذا شغل كتاب *رسائل أوبين* الناس وملأ الدنيا هذا الأسبوع؟».

استغلت السيدة دريشام فرصتها على الفور فقالت:

- - «من الغريب أنك لم تقرئيه. لقد انتشر هذا الكتاب كالنار في الهشيم، كما قالت السيدة آرميجر».

جلس غلينارد ثابتاً يراقب زوجته التي قالت بابتسامة رصينة:

- - «ربما لم يصل بعدُ إلى الضواحي».

صاحت السيدة توشيت:

- «اسمحوا لي بأن أقاطعكم. دعونا نحرك الأجواء قليلاً. فأنا مهووسة فعلاً بهذا الكتاب ولا يمكنني تركه. هل يمكنك أن تبحر بنا بعيداً عن تأثيره يا سيد فلاميل؟».

هز فلاميل رأسه قائلاً:

- «كلا، إذ إن الأدب يسير أسرع من البخار هذه الأيام حتى مع الرياح الحالية. وأسوأ ما في الأمر أننا لا نستطيع التخلي عن القراءة، فهي مغريةٌ كالخطيئة وثقيلةٌ كالفضيلة».
- «أعتقد أن قراءة كتاب مثل رسائل أوبين أشبه بالخطيئة»، قالت السيدة توشيت ثم أردفت: «إنها روح امرأة ممزقة تماماً، روح تقف عارية أمام رجل لا يهتم بها، ولا يمكنه الاهتمام بها. لا أنوي قراءة سطر آخر، فهذا يشبه التنصت إلى محادثات عبر ثقب الباب».
- «لكن ماذا إن كانت ترغب في نشرها؟».
- «ترغب في نشرها؟ كيف لنا أن نعلم أنها كانت ترغب في ذلك؟».
- «سمعتُ أنها تركت الرسائل في عهدة رجل ما، وأوصت بنشرها بعد وفاته».
- «لا أصدق ذلك»، قالت السيدة توشيت.
- «هل هو ميت حقاً؟»، سأل أحد الرجال الحاضرين.

احتجّت السيدة توشيت بالقول:

- «من المؤكد أنه ميت، وإلا فإن العار سيلازمه طوال حياته بسبب هذه الرسائل التي يقرؤها الجميع. من المُريع أن يعلم

أنها كُتبت له، ومن غير المعقول أن ينشرها، ولا أن تطلب امرأة ذلك».

- «هونوا عليكم»، قال السيد دريشام بحكمة، «إنها ليست رسائل حب في النهاية».
- «أسوأ ما في الأمر أنها رسائل لم تحظَ بالحب»، ردت السيدة توشيت.
- «لم تكن مضطرة إلى كتابتها إذن، في حين لم يستطع هذا الرجل المسكين أن يرفض استلامها».
- «ربما كان يعتمد على الجمهور ليوفر على نفسه عناء قراءتها»، قال الشاب هارتلي بنبرة ساخرة.

التفتت السيدة آرميجر إلى السيد دريشام وقالت بنبرة يشوبها لومٌ خفيف:

- «أرى من الطريقة التي تدافع بها عنه أنك تعرفه».

نظر الجميع إلى السيد دريشام، وابتسمت زوجته ابتسامة المرأة المتفوقة التي تعرف أسرار زوجها المهنية. هز السيد دريشام كتفيه وقال:

«وما الذي قلتُه دفاعاً عنه؟».

- «دعوتَه بالرجل المسكين، أي أنك تشفق عليه».
- «أشفق عليه طبعاً، فقد جعل هذا الرجل مارغريت أوبين تكتب له الرسائل بهذه الطريقة».
- «إذن من المؤكد أنك تعرف من هو»، صاحت السيدة آرميجر بنبرة المحلل المنتصر.

ضحك هارتلي وفلاميل، وهز السيد دريشام رأسه بالنفي قائلاً:

- «حتى الناشرون لا يعرفون من هو. على الأقل هذا ما يقولونه لي».
- «يقولون لك ذلك لتنشره بيننا»، صحح هارتلي بذكاء، ثم أضافت السيدة آرميجر قاصدة استقصاء معلومات أدق:
- «حتى لو كانا ميتَين، من المؤكد أن شخصاً ما أعطى الرسائل للناشرين».
- «لعله طائر صغير»، قال السيد دريشام بابتسامة متسامحة مع فضولها.
- «بل طائر مفترس جائع، أو نسر إن صح القول»، قال رجل آخر.
- «لا أتفق معك في هذه النقطة، فهذه الرسائل ملك للجمهور». قال السيد دريشام.
- «كيف يمكن أن تكون الرسائل ملك الجمهور إن لم تُكتب له منذ البداية؟»، تدخلت السيدة توشيت.
- «إنها ملك الجمهور، شأنها شأن شخصية عظيمة مثل مارغريت أوبين. فمثل هذا العقل يمثل جزءاً من مخزون الفكر العام، إذ تدفع الشخصية العامة غرامة هذه العظمة في أن تُصبح مَعلَماً تاريخياً تعمل الأجيال القادمة على تخليده، شرط أن يكون دائماً كتاباً مفتوحاً أمام الجميع».
- «لا أرى أن هذا يُبرّئ الرجل الذي سلّم مفاتيح المعبد كما يقال».

«ومن هو هذا الرجل؟»، سأل صوت آخر.

«من هو؟ لا أحد، ربما صندوق البريد المعلق على الحائط الذي تمر من خلاله الرسائل إلى الأجيال القادمة...».

- «لكنها لم تقصد أن تمررها إلى الأجيال القادمة».
- «لا ينبغي لامرأة أن تكتب رسائل من هذا النوع، إن لم تنوِ نشرها...»
- «بل يجب ألا تكتبها لرجل كهذا»، صححت السيدة توشيت بسخرية.
- «أنا لا أحتفظ أبداً بالرسائل»، قالت السيدة آرميجر موحيةً أنها تضيف نقطة قيمة إلى النقاش. ضحك الجميع وقال فلاميل الذي تكلم أول مرة:
- - «أنتن النساء منحازات إلى الجانب الشخصي، وأكاد أجزم أن معظم الرجال سيرون القيمة الأدبية الهائلة لتلك الرسائل، وأهميتها بوصفها وثائق، فالجانب الشخصي يصبح ثانوياً عند وجود جوانب أخرى كثيرة قيّمة».
- «نعلم جميعاً أنك تفتقر إلى المبادئ»، علّقت السيدة آرميجر، وقالت أليكسا غلينارد بابتسامة متثاقلة:
- «لن أكتب لك رسائل حب يا سيد فلاميل».

ابتعد غلينارد مستاءً وقد ضاق ذرعاً من إصرار زوجته على انضمامهما إلى هذه الرحلة السخيفة. لقد كان الحديث مملاً مثل طنين الذباب. كما أنه يكره جماعة فلاميل، ويمقت تدخل فلاميل ودفاعه عن نشر الرسائل بهذه الطريقة، كأن غلينارد بحاجة إلى دفاعه.

التفت غلينارد فرأى فلاميل قد جلب كرسياً وجلس إلى جوار أليكسا، وراح يتحدث معها بصوت خفيض. تفرقت المجموعات الأخرى إلى أزواج يتجولون على سطح اليخت العلوي. شعر غلينارد بأنه لن يستطيع رؤية فلاميل وهو يتحدث مع زوجته دون أن تنتابه الشكوك التي نخرت تفكيره.

فاجأت أليكسا زوجها في الصباح التالي في أثناء وجبة الفطور بطلب غير متوقع إذ سألته:

- «هل يمكنك أن تحضر لي تلك الرسائل من المدينة؟».

شعر في تلك اللحظة بأنه عاجز وضعيف كرجل يُهاجَم في الظلام. فقال وهو يضع كوبه على المائدة:

- «أي رسائل؟».

- «رسائل السيدة أوبين. الكتاب الذي كان يتحدث عنه الجميع أمس».

قال غلينارد بتأنٍّ وهو يملأ كوب الشاي:

- «لم أكن أعلم أنك تهتمين بهذا النوع من الكتب».

لم تكن أليكسا حقيقةً قارئة متعطشة، فنادراً ما تصلها الكتب الجديدة إلا بعد مضي وقت طويل على نشرها، لكنها أجابت بإصرار لطيف:

- «الكتاب يثير اهتمامي لأنني قرأت سيرتها العام الماضي».

- «سيرتها؟ من أين حصلتِ عليها؟».

- «أعارها لي شخص ما عندما صدرت، أعتقد أنه السيد فلاميل».

تجلى رد فعله الأول في أن صرخ قائلاً:

- «لماذا تستعيرين الكتب من فلاميل؟ يمكنني أن أشتري لك كل ما تريدينه».

لكنه شعر بأنه مجبَر بشكل لا يقاوم على الابتسام بإذعان، فأردف قائلاً: «يقتني فلاميل أحدث الكتب دائماً، ويجب أن تحرصي على إعادة ما يُعيره لكِ، لأنه متشدد إلى حد ما بخصوص مكتبته».

- «لا ينقصني الحرص»، قالت وهي تبتسم ابتسامة الواثقة التي تركت أثرها فيه، ثم أضافت وهو يمسك بقبعته: «لا تنسَ الرسائل».

لماذا طلبَت أليكسا الكتاب؟ هل كانت رغبتها المفاجئة في قراءته نتيجة تلميحات فلاميل؟ جعلته هذه الفكرة يشعر بالدوار، لكنه استطاع أن يحتفظ بوضوح ذهني كاف ليدرك بعد لحظات أنه سيفقد آخر أمل في ضبط نفسه إذا ما استسلم لوساوسه بوجود هدف خافٍ وراء كل ما تقوله وتفعله. لم تكن لدى غلينارد وسيلة لمعرفة مدى اختراق فلاميل أفكاره، ولا التنبؤ بما يضمره استناداً إلى ما يعرفه عن الرجل. فالصفات نفسها التي جعلت فلاميل مستشاراً قيّماً، جعلته كذلك شريكاً خطراً. شعر غلينارد بأنه عالق وسط قوىً غريبة تتقاذفه، قوى حفزها ما اقترفت يداه.

لم تكن أليكسا امرأة متطلبة، لكن رغباتها البسيطة كانت قطعية بشكل مختلف عن مرونة نظيراتها. لذا، يعرف أنها إن طلبت الكتاب، فلن تنسى أمره، فتجاهل الحجة الواهية التي خطرت له برهة، في أن يخبرها أن النسخ كلها قد نفدت من

المكتبات، وأنها إن رغبت في شراء كتاب جديد، فمن الأفضل شراؤه فور صدوره. غادر مكتبه في وقت مبكر، وتوجه نحو أول مكتبة يصادفها في طريقه إلى محطة القطار. كانت نافذة العرض مملوءة بالكتب المُعنوَنة على نحو صارخ الوضوح باسم «مارغريت أوبين». اندفع إلى المتجر حيث تراصّت نسخ من الكتاب على الرفوف المتجاورة بتكرار مُلحّ، إلى درجة بدا معها أن الكتاب طغى على الكتب الأدبية الأخرى كلها في المكتبة. أخذ نسخة ودفع ثمنها لصاحب المكتبة، الذي ذهله المبلغ المدفوع مقابل النسخة.

خرج غلينارد إلى الشارع وانتابه قلق مفاجئ من احتمال لقاء فلاميل. لم يحتمل هذه الفكرة، فأوقف سيارة أجرة وتوجه مباشرةً إلى المحطة، حيث انتظر وسط حشد مختنق متعرّق تحت مراوح من سعف النخيل، حتى بدأ القطار بالتحرك بعد نصف ساعة طويلة من الانتظار.

وضع مجلداً في كل جيب، دون أن يجرؤ على إخراجهما في القطار، لكن الكلمات البغيضة وثبت أمامه من صفحات الجريدة المسائية، حتى بدا الهواء يعبق باسم مارغريت أوبين. كما تسببت حركة القطار صعوداً وهبوطاً برؤيته صفحة مجلة يقرؤها شخص أمامه.

أخبروه عند باب منزله أن السيدة غلينارد لا تزال خارج المنزل، فصعد إلى غرفته في الطابق العلوي وأخرج الكتب من جيوبه، وألقى بها على الطاولة أمامه مثل مخلوقات حية يخشى لمسها. فتح الجزء الأول أخيراً، فظهرت له رسالة مألوفة بدت

كلماتها أكثر حيوية بفضل الطباعة البراقة. هربت العبارات عبر الصفحة كحيوانات جريحة في البرية... إنه منظر مروع أشبه بمذبحة مخلوقات عاجزة، اقتيدت بوحشية خارج مأواها. لم تكن لدى غلينارد أي فكرة عن الفظاعة التي ستؤول إليها الأمور.

أدرك غلينارد أنه عندما باع الرسائل لم ينظر إلى الصفقة إلا من زاوية تأثيرها فيه وحده، بوصفها لطخة مشؤومة في سجله الناصع. لم يفكر في تأثيرها في مارغريت أوبين، فحتى الموت يطوي الأذى أيضاً بكل رهبته وتطهيره. امتثل غلينارد قانون الأحياء، قانون الواقعية والمادية، وقضى حياته تابعاً له، متجاهلاً القوى التي تشحذ بصمت أدوات الموت القاتلة تحت سطح أفعالنا وعواطفنا.

الفصل السابع

أيقظه طرق على الباب. نظر إلى أعلى ليرى زوجته فلاقى نظراتها بصمت.

- «هل أنت مريض؟»، سألته.

استعاد رباطة جأشه وأجابها: «لا. أخبروني أنكِ خارج المنزل فصعدتُ إلى الطابق العلوي».

كانت الكتب موضوعة على الطاولة بينهما، ففكر في احتمالية أن تراها. اتجهَت نحو الباب بتمهّل، وكأنها تترك له مساحة ليفسر ما يجري دون تدخل منها، إذ لم تكن من النوع الذي يُعتمَد عليه لتقوية عذرٍ من خلال معارضته.

«أين كنتِ؟»، سألها غلينارد وهو يتحرك إلى الأمام بُغية منعها من رؤية الكتب الموجودة على الطاولة.

- «ذهبتُ إلى منزل السيدة دريشام لتناول الشاي».

«لا أدري ما الذي يعجبك في هؤلاء الناس»، قال محتداً ثم أضاف: «أعتقد أن فلاميل كان موجوداً».

- «لا، لم يكن موجوداً. لقد غادر على متن اليخت منذ الصباح».

أعاقت هذه الإجابة انفعاله وكبحت استياءه، فهرع بخطوات سريعة نحو الشرفة. وبينما كانت عينا زوجته تتبعانه، لاحظت الكتب على الطاولة.

- «أنا سعيدة جداً لأنك أحضرتها»، قالت أليكسا بحماسة.

فأجابها غلينارد بسخرية:

- «إنك تحققين إنجازاً استثنائياً بالنسبة إلى امرأة لا تقرأ».

ردت على سخريته بابتسامة، فربما أزعجه الجو الحار في البلدة، أو أنه صادف ما أثار حنقه.

- «أليس جميلاً أن أرغب في قراءة الكتاب؟».

- «بل ليس من الجميل نشره أصلاً، لكنني لستُ مسؤولاً عن هذا، أليس كذلك؟».

توقفت قليلاً لتجاهله الإجابة عن سؤالها، وقالت وما زالت الابتسامة تُرافق شفتيها:

- «أنت تعلم أنني أقرأ أحياناً، وأنني مولعة بكتب مارغريت أوبين. كنت أقرأ كتاب «*بذور الرمان*» عندما التقينا أول مرة. أتذكُر؟ أخبرتَني حينها كل شيء عنها».

دخل غلينارد الغرفة مجدداً ووقف يحدق إلى زوجته وكرر خلفها: «كل شيء عنها؟».

طرقت هذه الكلمات باب ذكريات لقائه الأول بالآنسة ترينت وهي تحمل رواية بين يديها. دفعته حماسة العاشق حينها إلى محاولة الاستحواذ على تفكيرها بطريقة ما، فكسر صمته المعتاد بالتحدث عن ماضيه. تمثلت مكافأته في الشعور بتأثيره في خيال الآنسة ترينت، فاستمر في سرد تفاصيل ذكرياته القديمة في حي هيلبريدج، وشعر بالزهوّ حين بدأت تستمع بشغف لذكرياته مع شخصية مؤثرة وعظيمة مثل أوبين.

لم تترك الحادثة أثراً في ذهنه حينها، لكنها ظهرت الآن كعدو قديم بات أشد خطورة لأنه كان طيّ النسيان. كثيراً ما تكون غريزة الدفاع عن النفس التي يمارسها الإنسان الغريزة الأكثر خطورة، وهذا ما جعله يقول بحذر:

- «اعتدتُ رؤيتها في منازل الآخرين، هذا كل ما في الأمر»، أتاح له صمتُها الفرصة لارتكاب مزيد من الزلات كالمعتاد، فأضاف بلا اكتراث: «لا أفهم ما الذي يثير اهتمامك في مثل هذا الكتاب».

مكتبة
t.me/soramnqraa

بدت كأنها تفكر في ما قاله:

- « قرأتَه إذن؟».
- «ألقيتُ نظرة فقط. أنا لا أقرأ أشياء كهذه».
- «هل صحيح أنها لم ترغب في نشر الرسائل؟».

أخذ غلينارد دوار مفاجئ كالذي يصيب المتسلق عند وقوفه على حافة ضيقة ويشعر بأنه سيهوي إذا ما تقدم خطوة واحدة.

- «كيف لي أن أعرف؟»، قال وهو يتصنّع الابتسامة، ثم مرر يده فوق ذراعها: «هل يمكنك إعداد الشاي لي الآن؟ فأنا لم أتناوله في منزل السيدة دريشام مثلك».

تذرّع غلينارد بالعمل ودخل إلى المكتب المفتوح على غرفة الجلوس. قال لزوجته وهو يجمع أوراقه:

- «ألن تجلسي خارجاً في ليلة جميلة كهذه؟ سأنضم إليك بعد قليل».

لكنها جلبت كرسيها إلى جانب المصباح، وقالت وهي تمسك بالمجلد الأول من *الرسائل*:

- «أرغب في إلقاء نظرة على الكتب».

انسحب غلينارد إلى المكتب وقال من عتبة الباب: «سأغلق الباب، أريد بعض الهدوء». أومأت أليكسا برأسها دون أن ترفع ناظريها عن الكتاب.

جلس في كرسيه يحدق إلى الأوراق المنبسطة بعينين تائهتين. كيف سيتمكن من العمل وأليكسا تجلس على الجانب الآخر من الباب والكتاب في يدها؟ لم يعزلها الباب عنه، بل رآها بوضوح، وشعر بقربها المؤلم مثل جرح ينزّ.

لم ينفصل هذا الشعور عن شعوره العام بالغرابة، وكأنه رجل استيقظ من سباتٍ طويل ليجد نفسه في بلد مجهول وسط أشخاص يتكلمون لغة غريبة. إننا نعيش في أرواحنا كما نعيش في منطقة غير مرسومة على الخريطة، مهدنا أجزاء من الأرض لتكون مسكناً لنا، دون أن نعرف عن طبيعة أقرب الأشخاص إلينا، إلا حدودهم المتاخمة حدودنا. اكتشف غلينارد الآن جهله بعض جوانب شخصية زوجته التي لا تتناغم مع شخصيته، فازداد إدراك بُعدها المربك تعقيداً باكتشاف أنها أصبحت، بطريقة ما، أقرب إليه من أي وقت مضى. يمكن للإنسان أن يعيش بسعادةٍ سنوات، لا يدرك فيها أن لديه عصباً حساساً، فقد عاش مع زوجته غير مدرك أن شخصيتها أصبحت جزءاً من نسيج حياته، نسيج لا يمكن نزعه مثل كتلة نمت على عضو حيوي. يشعر الآن بأنه غير قادر على توقع رأيها، ولا يستطيع تجنّب آثاره.

ذهب غلينارد في الصباح التالي إلى المدينة مبكراً على غير المعتاد، بغية التهرب من محادثات طاولة الفطور. فقد كانت زوجته، التي تقرأ ببطء، تميل إلى مناقشة ما تقرأ، في حين كان هدفه الأول حالياً تأجيل النقاش الحتميّ حول الرسائل. دفعته غريزة حماية النفس في وقت ما بعد الظهر في أثناء توجهه إلى البلدة إلى البحث في النادي عن رجل يمكن أن يقبل تناول العشاء في بيته في الريف. وكان الرجل الوحيد هناك هو فلاميل.

ومن نكد الدهر بالنسبة إلى غلينارد أنه يحث فلاميل لا إرادياً على حضور العشاء، لأن استخدام فلاميل درعاً ضد تحقيقات زوجته أقل إذلالاً من استناده إلى زوجته دفاعاً ضد فلاميل. لكنه كذلك شعر باستياء مضاد من استعداد الأخير لقبول الدعوة. توجه الرجلان بصمت إلى المحطة. تباطأ فلاميل لحظة عند مرورهما بكشك الكتب في غرفة الانتظار، ووقعت أعينهما على اسم مارغريت أوبين المعروض بشكل واضح فوق طاولة مملوءة بالكتب المألوفة، فتحجج غلينارد وهو يخرج ساعته:

- «سوف نتأخر».

رد فلاميل ببرود:

- «اذهب أنت، أرغب في إحضار شيءٍ ما».

استدار غلينارد وسار على الرصيف باتجاه القطار. عاد فلاميل حاملاً بين يديه مجلة بريئة في الظاهر، لكن غلينارد لم يجرؤ على إلقاء نظرة على الغلاف، خوف رؤية الحروف التي يخشى رؤيتها.

كان القطار يعج بأشخاص يعرفونهما، فبقيا منفصلين حتى نزلا في محطة ضاحية صغيرة. وبينما كانا يصعدان التلة المظللة، تحدث غلينارد بحماسة مشيراً إلى تحسينات الحي، واستهجن اقتراب إنشاء سكة حديد كهربائية. كان محترساً من الخطر الوشيك لأي تلميح حول *الرسائل*. استمع فلاميل لمحادثته بنوع من التجاهل المهذب، كما نتجاهل ثرثرة أحدهم عن تحسين أوضاع المنطقة التي يقطنها، حتى وصلا إلى منزل أليكسا دون أي تحول ملحوظ نحو الموضوع المخيف.

ومرّ العشاء بسلام. دائماً ما يكون فلاميل في أفضل حالاته بحضور أليكسا، إذ يمنحها ذاك النوع من الاهتمام الذي يشبه ضوءاً موجهاً ينير كلمات المتحدث، فكانت إجاباته كأنها تكشف معاني كامنة في عباراتها، تماماً كما يُظهِر النحات الجمال الكامن في الحجر الرخامي.

رصد غلينارد لدى زوجته إدراك هذه المناورة إدراكاً خافياً متوارياً خلف رصانتها، وكان اكتشافه كوميض البرق في غابة مظلمة. كشفت هذه الإضاءات اللحظية الغرابة التي سكنت علاقتهما، فبدت كل ملاحظة جديدة تزيد حجم جهله. كانت بساطة زوجته أكثر إرباكاً من أكثر الأشياء تعقيداً، فمن الممكن أن يتجاوز المرء متاهة ما، لكن وضوح أليكسا يشبه سهلاً مغطىً بالثلج، حيث تتوه الاتجاهات، ويضيع الطريق.

خرجوا جميعاً إلى الشرفة بعد انتهاء العشاء، وقد أطلّ القمر من وراء شجرة الدردار القديمة، وأضفى اتساعاً رومانسياً على حدودهما اللطيفة. تذكر غلينارد السجائر، فذهب إلى الكتب لإحضارها، ورأى عند مروره في غرفة الجلوس المجلد الثاني من الرسائل مفتوحاً على طاولة زوجته. التقط الكتاب ونظر إلى تاريخ الرسالة التي كانت تقرؤها. كانت إحدى رسائل مارغريت أوبين الأخيرة التي يحفظ سطورها القليلة عن ظهر قلب. أفلت الكتاب واستند إلى الحائط وفكر، لماذا وضع تلك الرسالة بين الرسائل الأخرى؟ وهل من الممكن أن يراوده الشعور ذاته تجاه الرسائل كلها؟ تناهى إليه صوت أليكسا فجأة من الظلام:

- «كانت ماي توشيت محقة، فقراءتها تشبه التنصت من خلال ثقب الباب. ليتني لم أقرأها». عاد فلاميل ليقول بنبرة هادئة وهو يدخن سيجارة:
- «إننا نقارب الكتاب من وجهة نظرنا فحسب، لكنه سيكون تحفة أدبية بالنسبة إلى الأجيال القادمة».
- «ما كان ينبغي أن تُنشر إذن حتى تصبح قطعة أدبية كلاسيكية. من المُهين أن تقرأ أسرار امرأة كنتَ تعرفها»، قالت أليكسا ثم أضافت بصوت خافت: «كان ستيفن يعرفها».
- «حقاً؟».
- «كان على معرفة جيدة بها سنوات في هيلبريدج. أشعرَه الكتاب بالرهبة، ولم يرغب في أن يقرأه، أو أقرأه أنا أيضاً. لم أفهم الأمر في البداية، لكنني الآن بتّ أرى قراءته أشبه بالخيانة. فكشفُ أسرار الأصدقاء أسوأ بكثير من كشف أسرار الغرباء». قال فلاميل بما يشبه السخرية: «غلينارد رجل حساس جداً».

فردت أليكسا بنبرة توبيخية:

- «لو أنك عرفتها، لشعرتَ مثله بالتأكيد».

تسمّر غلينارد في مكانه، فقد وضعه الحظ السيئ تحت رحمة فلاميل الذي أصبح يعرف أهم نقطتين قد تؤذيانه في قضيته: حقيقة أنه كان صديق مارغريت أوبين، وأنه أخفى عن أليكسا دوره في نشر الرسائل. وبالنسبة إلى رجل في ذكاء فلاميل، فقد أصبح الرجل الذي كُتبت له هذه الرسائل معروفاً. وإذا ما نوقش هذا الأمر، فلن يكون تأكيده ببحث بسيط صعباً. أغوته نفسه بإخبار زوجته الحقيقة بحضور فلاميل الذي إن حافظ على حد

أدنى من الشرف، فستكون هذه الطريقة الفُضلى لضمان صمته. إضافة إلى أنه سيتخلص من وجوب الدفاع عن نفسه أمام نقد زوجته المتواصل.

كان الدافع قوياً بما يكفي ليقوده نحو النافذة. تولّد لديه شعور بالتحدي، فما الذي اقترفه ليُضطر إلى الدفاع والتفسير؟ سبق أن أعلن كل من دريشام وفلاميل أن نشر الرسائل مبرَّر وضروري أيضاً. وفي حال كان حكم فلاميل موضع تشكيك، فإن قرار دريشام على الأقل يمثل الرأي المحايد لكاتب. أما كلام أليكسا، فقد مثّل ببساطة الكلام التقليدي للمرأة «المهذبة» حول قضية حسمتها نساء «مهذبات» أخريات، فتحدثت تلقائياً بالكلام المناسب تماماً كما ترتدي الثوب المناسب، أو تكتب دعوة العشاء بطريقة ملائمة. كانت ثقة غلينارد بأحكام النساء ضئيلة، فهو يعلم أن نصف النساء اللواتي استنكرن نشر رسائل السيدة أوبين، كُن ليكشفن أسرارها دون تردد.

أحسّ بالراحة والتحسن بعد أن خفّ انفعاله العاطفي، وأخبر نفسه أن الأسوأ قد مرّ، وأن الأمور ستعود إلى توازنها مرة أخرى. تحول فلاميل وأليكسا إلى مواضيع أخرى، وعندما خرج إلى الشرفة، سلم السيجار لفلاميل وقال ببهجة، كأنه أقسم أنها آخر الكلمات التي يقولها:

- «اسمع يا صديقي، يجب أن تأتي وتقضي بضعة أيام معنا قبل أن تذهب إلى نيوبورت، أليس كذلك يا أليكسا؟».

الفصل الثامن

كان غلينارد يُراهن على استمرارية الحالة الشعورية المريحة التي يعيشها دون وعي منه، إذ لطالما كان فخوراً بصلابته النفسية التي تخوّله مقارعة الصعاب التي لا مفرّ منها ولا مهرب، وتسمح له بتحويل إخفاقاته وفشله إلى حجارة يرصفُ من خلالها طريقه نحو النجاح. لكن ما لم يخطر على باله قبلاً أن الأشياء التي كان يُطلق عليها مسمّى الحتميّات قد تغدو بدائلَ محبّبة إذا ما قورِنت بالحتميّات أو الصعوبات الحاليّة، فقد أدرك في أعماقه أن من غير المعقول مواجهة تلك الأخيرة بالاستهانة والازدراء، فبعض الأحزان تبني للروح بيتاً فسيحاً. لكن هذه التعاسة أثقلت كاهله وأحكمت قبضتها على روحه، وهو يرجع ذلك إلى حقيقة عدم وجود مهرب من آثار ما اقترفت يداه، فتلك *الرسائل* تحاصره من جميع الجهات، ويناقشها أُناس لم يقرؤوا من قبلُ كتاباً، بل ويضعون تحفظاتهم النقدية عليها، وغدت قراءتها التزاماً اجتماعياً في مجتمع لا يطرق الأدب بابه إلا تحت عباءة شخصية.

لقد ظلم غلينارد نفسه، وكانت معاناته نابعة من الضآلة التي لم يكن يتوقع وجودها في شخصيته، إذ إن تقدير الذات قد يستندُ أحياناً إلى تلك الأعمال النبيلة التي لم تتسنّ للمرء تأديتها، وحتى أكثر أنواع التواضع الخاضعة للمراقبة الذاتية تنسب إلى نفسها معايير أخلاقية جادة بشكل سلبي. بيد أن غلينارد لم ينسب إلى نفسه صفة البطل قطّ، لكنه كان على يقين بأنه أرفع مقاماً من الأفعال الدنيئة، فنحن نحبُّ أن تكون أخطاؤنا منتقاة، وأن نرتكبها

لأسباب وجيهة، أما غلينارد، فقد وجد نفسه مرتدياً زيّ العار الذي لا يليق إلا بمن هو أدنى منه منزلة.

في الأسابيع الأولى من حالة البؤس التي سيطرت عليه، عقد العزم على الذهاب إلى المدينة لقضاء الشتاء فيها، وهو يعلم أن تصرفه هذا يخرج عن نطاق الحكمة والتعقل، لكن تهدئة مخاوف أليكسا التي كانت تُولي إدارة شؤون الأسرة الاهتمام الأكبر لم تكن أمراً عسيراً، وهي التي تحافظ على طابع الزوجة الأمريكية التقليدية المنعزلة عن اهتمامات الزوج التجارية. كان قراره هذا ناجماً عن ثقته المهزوزة، فهو لا يقوى على عزلة الشتاء معها، ويعتريه بشدة من خوف فكرة إدراكها حقيقة تلك الرسائل، إلى جانب عدم يقينه بقدرته على مقاومة الرغبة الجارفة في الاعتراف أمامها. لقد كانت روحه تستجدي العطف، تأمل الشفقة والتفهّم، ولكن هل كانت زوجته لتُشفق؟ هل كانت لتفهم؟ مرة أخرى وجد نفسه يُصارع جهله التام بطبيعة زوجته. لقد كان يعرف تمام المعرفة كيف ستتصرّف في الحالات الطارئة المعتادة، وأنه يستطيع المراهنة على شجاعتها المعهودة وواقعيّتها في مثل هذه الحالات، لكنّ حقيقة معرفته هذه جعلته يائساً من إمكانية تبريرها أفعاله التي لم يكن هو نفسه قادراً على فهمها أو تفسيرها. كان من الأسهل عليه لو كانت تتحلى بصفات النساء العاديات، لو أمكنه الاعتماد على تعاطفها الخيالي أو سذاجتها الأخلاقية. لكنه لم يكن متأكداً من أي منهما، لم يكن واثقاً بأيّ شيء، سوى أن عليه أن يتجنّبها بعض الوقت. لم يستطع غلينارد أن يتخلّص من الأفكار التي تُوهمه أن عواقب أفعاله سوف تنتهي،

ولم يكن مهتماً بالاعتراف لنفسه بأنه يعتمد على أحاسيسه المتبلّدة، بل فضّل الانغماس في الفرضية الغامضة التي تدّعي أن ضجيج الحياة الخارجية من شأنه طمس وصمة العار تلك القابعة في أعماق ضميره. وفي أبشع لحظات احتقاره ذاتَه، حاول أن يُعزّي نفسه بفكرة أن فلاميل كان موافقاً على ما فعله. لا بدّ أن فلاميل قد خمّن وجهة هذه الرسائل في البداية، ومع ذلك لم يتردد قط في التوصية بنشرها. سببت هذه الأفكار امتلاك غلينارد مشاعر ودية تجاه فلاميل، لكن عدم الثقة والبغض كانا يختبئان وراء هذه المشاعر، فعند غياب فلاميل عن المنزل، كان غلينارد يفتقد تواطؤه الضمني، أما عندما يكون موجوداً فيغدو حضوره تأكيداً لادّعاء لا يُحتمل.

في وقت مبكر من الشتاء، تملّكت عائلة غلينارد المنزل الصغير الذي لم يكلفهم شيئاً تقريباً، وقد جلب هذا التغيير الراحة لغلينارد، إذ قلّص رؤيته زوجتَه، ووفّر له الحماية بوجودها في ظل ضجيج الانشغالات الكثيرة التي تزخر بها حياة المدينة. أمّا أليكسا، التي لم تكن يوماً على عجلة من أمرها، فتعكس الصورة المجردة لوجه امرأة جميلة لا يزال الجانب الاجتماعي من حياتها الزوجية محافظاً على بريقه. وفي حين أن غلينارد كان رجلاً أرعن غير مبالٍ تجاه الأمور المالية، راح يحثها على بعض البذخ وهي تمانع في البداية، مستندةً إلى إحساسها الذي لا يخيب. ولدى وصولهم المدينة، حرص غلينارد على الاستمتاع، فكان يضفي بُعداً عاطفياً على مواضيع يعدّها جوهرية كارتداء الملابس الجديدة. وفي عيد الميلاد أهداها معطف فروٍ، ووظف

خادمة في بيتهما الصغير بناء على اتفاقهما قبل بداية العام الجديد.

في اليوم التالي، شاءت الأقدار أن يجد غلينارد ظرفاً يحمل اسم الناشرين الذين باعهم رسائل السيدة أوبين. كان هذا الظرف أمامه على طبق الفطور، وتبين أنها كانت الرسالة الوحيدة التي جاءت بالبريد الصباحي المبكر. رمق غلينارد زوجته التي جلست قبله إلى المائدة، ويرجح أنها هي من وضعت الظرف على طبقه. لم تكن من نوع النساء اللواتي يطرحن أسئلة محرجة، لكنه شعر بالشكوك في نظراتها عندما سقط الشيك من الظرف. فكر في أن يتصنّع الدهشة عند قراءة الرسالة، أو ألا يهتم بها وأن يتصرّف كأن الرسالة ضلّت طريقها إلى منزله. كان الشيك تعويضاً عن حقوق النشر والمبيعات التي تخص الطبعة الأولى لتلك الرسائل. راوده شعور بسيط بالرضا، لقد حصل على المال بطريقة ماكرة ولم يقدر على إخفاء سعادته، لا سيّما أنه على المدى غير البعيد، سيكون هناك مزيد من المال. كان يعلم أن الكتاب لا يزال يُباع بكميات تفوق آمال الناشرين. وضع الظرف في جيبه، وغادر الغرفة دون أن ينظر إلى زوجته.

في طريقه إلى مكتبه، عاود رد الفعل الفطريّ السيطرة على مشاعره، فالمال الذي تلقاه هو تذكير حقيقي أنه يعيش على بيع كرامته وتقديره نفسَه، أمّا فكرة الفائدة الماديّة، فقد تلاشت بفعل شعوره بالدناءة لأنه سبب ظهور هذه الرسائل علناً. لقد أدرك الآن وضاعة أفعاله، وكيف أن حاجته الملحّة إلى المال قد جرفته إلى هذه الوضاعة بطريق لا رجعة فيه، ووضعته وجهاً

إلى وجه أمام عواقب أفعاله. بدا له، في تلك الساعة الأولى من التعاسة، أنه قد خان حبيبته من جديد.

عندما عاد إلى منزله مبكراً على غير العادة ظُهر ذلك اليوم، سمع أصواتاً تصدح بهجةً قادمة من غرفة الجلوس. كان صخب تلك الأصوات يصل حتى أسفل الدرج في الطابق السفلي. تعجب من ذلك، لم يكن فلاميل هناك هذه المرة، لكن دريشام وهارتلي الشاب، كانا مجتمعَين على طاولة الشاي، غارقَين في نوبة من الضحك وهما يستمعان بابتهاج لحديث السيدة آرميجر وأسلوبها السريع والمرح في رواية القصص.

توقفت السيدة عن الكلام لدى دخول غلينارد الذي كان لديه ما يكفي من الوقت ليلحظ أن زوجته، التي كانت مشغولة بصينية الشاي، لم تنضم إلى حفلة الضحك التي يقيمها الرجلان.

- «أوه استمري، استمرّي!»، صاح هارتلي الشاب بحماسة، وقابلت السيدة آرميجر نظرات غلينارد المستفسرة بصرخة استنكار، إذ إنها لم ترَ ما يمكن أن يثير الضحك في كلامها.
- قالت: «أشعر برغبة في البكاء، ولا أعلم ما كنتُ لأفعل لو لم تكن أليكسا في المنزل لتقدم لي فنجاناً من الشاي، أشعر بأن أعصابي تنهار. أحضري لي فنجاناً آخر يا عزيزتي!». ثمّ تابعت بعد تأمّلها قطعة السكّر الثانية وسط ذهول غلينارد: «لقد عدتُ التوّة من جلسة القراءة في والدورف».

قال غلينارد وهو يتناول فنجان الشاي الذي قدمته له زوجته:

- «لم أقضِ في المدينة وقتاً يكفي لمعرفة أيّ شيء، عن أيّ جلسة تتحدثين؟».

- «تلك الفتاة الجميلة من الجنوب، أعتقد أن اسمها جورجي. إنها تحت وصاية السيد دريشام، أو ربما تخصّك، يا سيد دريشام! في الحقيقة، كانت القاعة المخصصة للرقص تغصُّ بالسيدات اللواتي يبكين جميعهن كالحمقاوات، لقد كان ذلك أفظع شيء سمعته في حياتي كلّها».
- «ما الذي سمعتِه؟».

بينما سأل غلينارد تدخّلت زوجته قائلة:

- «ألا ترغبين في قطعة أخرى من الكعك يا جوليا؟ هل يمكنكَ أن ترنّ الجرس لتحضر لنا الخادمة بعض الخبز المحمص الساخن يا ستيفن؟».

كشفت لهجتها المهذبة تعبها وضجرها من النقاش الجاري. توجه غلينارد صوب الجرس وتبعته السيدة آرميجر بنظرات الدهشة المحببة.

- «عجباً! رسائل أوبين، ألا تعرفها؟ لقد قرأتْها الفتاة جورجي ببراعة مدهشة ومخيفة في آن. ولو كان هناك رجل قريب بما يكفي ليحملني خارجاً، لفقدتُ وعيي».

بينما تضاعف مرح هارتلي قال دريشام بنبرة مازحة:

- «يا لطباع النساء الغريبة، تثرنَ الضجيج والصخب حول الكتاب، ثم تبذلن كلّ ما في وسعكنّ للترويج لقراءته».

قالت السيدة آرميجر مبالغةً في لوم نفسها:

- «لقد كان أمراً مروعاً، مروعاً ومشيناً. قلتُ لزوجتك إن علينا أن نشعر بالخجل جميعاً لحضور هذه الجلسة، وأعتقد أن أليكسا كانت محقة تماماً برفض شراء أي تذكرة، حتى لو كان ريعها يعود إلى الأعمال الخيرية».

تمتمت أليكسا بنبرة تخلو من أيّ اهتمام:

- «بالنسبة إليّ، فإن الأعمال الخيرية تبدأ من المنزل. لا أقوى على تحمّل الترف العاطفي».

قال هارتلي محتدّاً:

- «أعمالٌ خيرية؟ حقاً؟ لا أفهم الجانب الجمالي في قراءة الرسائل الغرامية للمسكينة مارغريت أوبين في والدورف على مسامع خمسمئة شخص من أجل أعمال خيرية؟ أيّ نوع من الأعمال الخيرية هذه يا سيدتي العزيزة آرميجر؟».

- «النوع الذي يساعد النساء الوحيدات».

- «اختيارٌ موفق»، بينما علّق دريشام، أخفى هارتلي ضحكته في وسادة الأريكة.

عندما أصبح الزوجان بمفردهما، توجه غلينارد، وهو لا يزال ممسكاً بفنجان الشاي الذي لم يرتشف منه بعد، بالسؤال إلى زوجته التي تجلس بصمت قرب الإبريق:

- «من طلب منكِ شراء تذكرة من أجل جلسة القراءة تلك؟».

أجابت: «لا أعرف حقاً، أعتقد أن كيت دريشام هي من طلبت ذلك».

- «بالطبع، فهي لا تجيد إلا كل فعلٍ سافلٍ قبيح. يا لها من بغيضة مقززة».

ردت زوجته بنبرة جادة دون أن ترفع نظرها:

- «اعتقدتُ ذلك أيضاً، ولهذا السبب لم أذهب، لكن يجب أن تتذكر أن قليلين فقط يكنون للسيدة أوبين المشاعر التي تكنّها أنت لها».

حاول غلينارد أن يضع فنجان الشاي بثبات، لكنه شعر بالدوّار وكأن الغرفة تدور، وسرعان ما سقط على أقرب كرسيّ مردداً: «مشاعري أنا؟».

- «أعني أن قليلين عرفوها خلال مدة إقامتها في نيويورك، فبالنسبة إلى معظم النساء اللواتي ذهبن إلى جلسة القراءة، لم تعنِ لهنّ السيدة أوبين أكثر من مجرد اسمها دون أيّ اعتبار لشخصيتها. أمّا أنا، فبالطبع كنتُ أنظر إلى الأمر على نحو مختلف».

رمقها غلينارد بعينين مذهولتين يشوبهما الخوف:

- «مختلف؟ لماذا مختلف؟».
- «لأنك صديقها...».
- «صديقها؟»، صاح غلينارد وهو ينهض بانفعال ثم تابع القول: «تتحدثين وكأن لديها صديقاً واحداً فقط. لا تنسي أنها أشهر امرأة في عصرها». تجول باضطراب في أنحاء الغرفة، وراح ينحني ناظراً إلى بعض الكتب المبعثرة على الطاولة، وأضاف: «أتمنى ألا تكوني قد اتخذتِ معرفتي بها ذريعة».
- «ذريعة؟».
- «أعني لعلّكِ اتخذتِ صداقتي معها سبباً لعدم الذهاب، فالمرأة التي تضع الحجج لتفادي المشاركة في الالتزامات الاجتماعية قد تتقلّص شعبيتها وتظهر بمظهر سخيف».

كانت الكلمات تخرج من بين شفتيه بعشوائية، ولم يكن ينتقي مفرداته، لكنه في لحظة ما شعر بأن المسافة بينه وبين زوجته قد تقلّصت. شعر بأنها قريبة جداً منه، لكن كعدوّ محموم، وإجابتها تلك لم تكن سوى ومضةٍ تُظهر يدها التي تقبض على الزناد.

وقفت عند عتبة الباب وقالت:

- «يبدو أنني جلبت على نفسي كلا الأمرين بإفصاحي أمامك عن ذريعتي».

في تلك الأمسية، سهّلت مناسبة العشاء خارج المنزل تجنّب أليكسا، إلى أن نزلتْ مرتدية زيّ الأوبرا. عرَضت عليها السيدة توشيت التي كانت ذاهبة إلى العشاء ذاته الذهاب معها، أمّا غلينارد الذي رفض أن يُحاصر بين سيدتين، فقد تبعهما سيراً على الأقدام. امتدت تلك الأمسية إلى ما لا نهاية، وكانت جلسة القراءة السابقة في والدورف التي حضرتها النساء جميعهن قد أنعشت النقاش بخصوص *رسائل أوبين*. أما غلينارد، الذي جلس يستمع للاستجواب الذي تتعرض له زوجته نتيجة غيابها، فقد تمنى بشدة لو أنها ذهبت بدل تسليط الضوء على غيابها. كان يفقد بسرعة قدرته على تقدير أهمية الأشياء أو خطورتها، وغدا كل ذِكرٍ لموضوع الرسائل اتهاماً صريحاً له، حتى أنه استسلم لفكرة أن السيدة دريشام، التي لا تحبه، هي من نظمت مناسبة القراءة للإيقاع به، لأنه كان على يقين بأن دريشام نال حصته من تلك الصفقة.

كان السعي إلى إيجاد مساحة آمنة وسط هذا الاضطراب الداخلي أمراً بعيد المنال، وأشبه بمحاولة الهروب من وحش في أحد الكوابيس. لقد فقد الإحساس بما كان يقوله أمام جيرانه، وأصبحت نظرات زوجته تُسري القشعريرة في جسده.

في أثناء العشاء، جلست أليكسا إلى جوار فلاميل وقبالة غلينارد، وبدا أنهما صنعا حاجزاً وهمياً يمنع الآخرين من سماعهما

فيقدران بذلك على مناقشة ما يحلو لهما. كانا صامتَين خلال مناقشة جلسة القراءة، وبدا صمتهما في عيني غلينارد مشهداً هزلياً أسقط آخر تمويه يخفي تواطؤهما. سرت في أعماقه رعشة من الغضب، لكنها سرعان ما خمدت. وفجأة، خالجه شعور غريب بالراحة، إذ شعر في أعماقه أنه لا يهتم إذا ما كان فلاميل قد أخبر زوجته. شعر بأن فرضية معرفة فلاميل بأمر الرسائل باتت حقيقة، وبدا له أن من الأفضل أن تعرف أليكسا أيضاً.

في البداية، أصابه الذعر من مستوى اللا مبالاة الذي وصل إليه، وبدا له آخر أسوار إرادته ينهار أمام سيول من الانحطاط الأخلاقي. كيف يمكنه مواصلة تأدية هذا الدور، وحماية نفسه من مخاوفه، مع سم اللا مبالاة الذي يسري في عروقه؟ حاول استعادة ذكرى نظرة الازدراء التي رمقته بها زوجته، ولم ينسَ قط ملاحظتها التي أنهت بها حديثهما. وإن كانت لديه بعض الشكوك بشأن كيفية تلقيها الحقيقة، فلا ريب أنها تلاشت الآن، إذ بات متأكداً أنها ستحتقره. منحه هذا الاحتقار بُعداً ماكراً آخر من الإغراء، لأن احتقارها إياه سيكون ملاذاً له من نفسه. فكّر؛ لأنه لا يهتم بالعواقب، يمكنه على الأقل أن يزيح ثقل الدفاع عن النفس من على صدره. لم يكن يريد لنفسه الحصانة، بل القصاص، فعسى أن تُصلح معاقبة زوجتِه إياه علاقتَه مع نفسه، وهنا يكمن أمله الوحيد في التغيير. ازدراؤها إياه هو المطهّر الأخلاقي الذي يحتاج إليه، واستيعابها هو بلسمه الشافي والوحيد.

عندما انتهى العشاء، كان يخاف التحدث إلى درجة أنه جعلها تعود إلى المنزل بمفردها، وفضّل الذهاب مع فلاميل إلى النادي.

الفصل التاسع

استيقظ غلينارد صباح اليوم التالي عازماً على معرفة ما تضمره أليكسا تجاهه وما يجول في خاطرها، ولم يكن يأمل الخلاص بقدر توقه إلى سكينة مؤقتة وسط عاصفة مشاعره الهوجاء.

تعمّد العودة إلى المنزل متأخراً، إذ كان يعلم أنه سيتناول عشاءه ويقضي الأمسية مع زوجته وحدهما. بعد العشاء، تبعها إلى غرفة المعيشة، وشعر بأن الكلمات توشك أن تنزلق من بين شفتيه. أعطته أليكسا فنجان قهوته، استجمع قواه وقال دون تفكير:

«عليّ أن أشرب القهوة في مكتبي، لديّ أعمال متراكمة كثيرة علي أن أنجزها الليلة».

في مكتبه، راح يلعن جبنه. ما الذي منعه من البوح؟ شعر بأن هناك شيئاً غامضاً يبقيه على مسافة قريبة منها لكن مع وجود حاجز خافٍ يمنعه من التحدث، فلم تكن أليكسا امرأةً يُمكن التحايل على عواطفها. لم يكن يملك أدنى فرصة للالتفاف حول الأمر، فهو يدرك تماماً أنه لن يقدر على مفاجأتها أبداً. فكّر؛ لماذا لا يواجهها إذن؟ فما يخشاه ليس أسوأ مما يعانيه فعلاً. دفع كرسيه إلى الخلف ونهض قاصداً الطابق العلوي. وفجأة، خطرت على باله فكرة جديدة. ماذا إن سمح لها باكتشاف الحقيقة بنفسها بدل إخبارها بها، ثم مراقبة ردّ فعلها قبل أن يبادر بالتحدث إليها؟ وبهذه الطريقة سيتخلص من عبء المواجهة ويدع الأمر للمصادفة.

استلهم الفكرة من الطريقة التي غلّف بها الناشر الشيك. كان قد أودع الأموال، لكن إشعار الإيداع سقط من حافظة ملاحظاته عندما كان ينظف مكتبه. كانت الصيغة المكتوبة على الإشعار اعتيادية في مثل هذه الحالات وتكشف بصورة جليّة أنه متلقي الأموال التي تخص الملكية الفكرية عن رسائل مارغريت أوبين، ما سيؤكد شكوك أليكسا كلها، وسيكون من المستحيل ألا تفهم لدى قراءتها على الفور أن هذه الرسائل قد كُتبت له وأنه باعها.

جلس في الطابق السفلي حتى سمع صوت الجرس إيذاناً للخادمة بإطفاء الأضواء، ثم صعد إلى الطابق العلوي وفي يده مجموعة من الأوراق. كانت أليكسا تهمّ في النهوض من كرسيها وقد بدت خصلات شعرها الكثيف تحت الضوء كقبّة تعلو معبداً. كان لوجهها ذاك الطابع المتفرد والمهيب لحرم مقدس، وقد أشعرته هذه اللمسة المهيبة في جمالها بأنه يوشك أن يُدنّس المقدّسات.

قبل أن يصبح فريسة مشاعره، توجه بالحديث إليها قائلاً:

- «أُريدكِ أن تُسدي إليّ خدمة تخصّ العمل. لدي كثير من الفواتير القديمة والأوراق التي تحتاج إلى فرز وترتيب. بعضها لا قيمة له، لكنك ستقدرين على تقييم ذلك. قد تكون بينها رسالة أو اثنتان، لكن لا شيء مهم على وجه التحديد. لا أحب أن أتخلص منها دفعة واحدة دون أن أُلقي نظرة سريعة عليها، ولا أملك وقتاً كافياً لأفعل ذلك بنفسي».

مدّ الأوراق نحوها، فأخذتها بابتسامة من يُدرك الدافع وراء هذه الخدمة، ما قد يكون تعويضاً عن حادثة اليوم السابق.

- «أمتأكدٌ أنني سأعرف الأشياء التي يجب الاحتفاظ بها؟»، سألته.

أجاب تلقائياً:

- «واثق تمام الثقة، إلى جانب ذلك، ليست أشياء مهمة».

صباح اليوم التالي، اختلق عذراً لمغادرة المنزل دون رؤيتها، وعندما عاد قبل العشاء، وجد أغراض ضيف في الصالة، قبعة وعصا. إنه فلاميل، وكان يهمُّ بالمغادرة.

بينما كان فلاميل واقفاً، كانت أليكسا لا تزال جالسة، وكان سلوكهما يُوحي بحوار جرى بينهما يتعدى حدود الكلام. نظر كلاهما بأعين متفاجِئة نحو غلينارد، الذي شعر بدوره بأنه يسير داخل غرفة فارغة، وكأن الأفكار المتواطئة بين زوجته وفلاميل قد تفرقت لمجرد اقترابه. عاوده إحساسُ الخوف القديم، ماذا إن كانت زوجته قد فرزت الأوراق بالفعل وأخبرت فلاميل باكتشافها؟ على كلٍّ، كان فلاميل على علم بأن غلينارد يستلم أموالاً من بيع رسائل أوبين.

ما إن أغلق الباب خلف فلاميل حتى نظر إلى زوجته مترقباً الأسوأ، ولكن أليكسا كانت قد نهضت أيضاً، مولية ظهرها نحو غلينارد، فانحنت على الطاولة وشرعت تتحدث بسرعة.

- «سأذهب لتناول العشاء خارجاً الليلة، هل تمانع؟ لقد أرسلت إليّ جوليا آرميجر رسالة تقول فيها إن لديها تذكرة إضافية لحفل آمبروز الأخير، لقد أعربت أيضاً عن أسفها لأنها لا تملك تذكرتين، لكنني على دراية أنك لن تتزعج». أنهت جملتها الأخيرة بضحكة بدت كأنها صدى لضحكة السيدة

آرميجر. وقبل أن يفتح غلينارد فمه، أضافت وهي تمسك بقبضة الباب:

- «لقد تأخر السيد فلاميل حتى غادر، إلى درجة أنني بالكاد حصلت على الوقت الكافي لارتداء ملابسي. ستبدأ الحفلة في وقت مبكر للغاية، وقد حجزت السيدة جوليا لتناول العشاء في تمام السابعة والنصف».

وقف غلينارد وحيداً في الغرفة الفارغة التي بدت مملوءة بطريقة ما بأحاسيس ساخرة تجاه ما كان يحدث. غمغم قائلاً: «إنها تكرهني... إنها تكرهني».

صباح اليوم التالي، قرر غلينارد البقاء في غرفته حتى وقت متأخر. وعندما نزل إلى الطابق السفلي، كانت زوجته قد سبقته إلى مائدة الفطور. استقبلته بابتسامتها المعهودة، وسارع كلاهما إلى الاحتماء تحت مظلة أول حديث جال في خاطرهما. في أثناء إصغائه إلى حديثها حول الحفلة، أخذ يفكّر في أنها على الأرجح لم تفرز الأوراق بعد، وأن اضطرابها البارحة كانت له أسباب أخرى قد يكون له فيها دور غير مباشر. فكر أنه لم يخطر على باله قبلاً أن فلاميل قد يكون من ذاك النوع من الرجال الذي قد يسعد امرأة بصدق دون أي دوافع خافية، ودون أن يعتمد على مساعدة الحظ. إن كانت هذه الاحتمالية تفسر ما يجري، فهي بالتأكيد لا تجمله. لقد شعر غلينارد بأنه تُرك وحيداً وسط شعور الدناءة الذي يُسيطر عليه.

تركت أليكسا مائدة الفطور قبله، وعندما صعد لاحقاً إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي وجدها ترتدي ملابس الخروج. سألها:

- «أليس الوقت مبكراً بعض الشيء للذهاب إلى الكنيسة؟». أجابت بأنها في طريقها إلى هناك تعتزم التوقف بعض الوقت في منزل والدتها. بينما أخذت ترتدي قفازاتها، راح غلينارد يبحث عن علبة كبريت بين الزينة الموجودة على الرف العلوي لإشعال سيجارته.
- «حسنًا، وداعاً»، قالت وهي تستعد للمغادرة. وأضافت وهي تقف عند عتبة الباب: «بالمناسبة، لقد فرزت الأوراق التي أعطيتني إياها. تلك التي أعتقد أنك ترغب في الاحتفاظ بها وضعتها على مكتبك». نزلت الدرج وسمع غلينارد الباب يُغلق وراءها.

لقد فرزت الأوراق، لقد عرفت. لا بد أنها عرفت، لكنها لم تُبدِ أيّ إشارة!

لم يعرف غلينارد كيف وجد نفسه مرة أخرى في مكتبه. وضعت أليكسا على الطاولة المغلفات التي أعطاها إياها وقد باتت أقل عدداً بكثير. من الواضح أنها دققتها بعناية، وأتلفت القسم الأكبر. فكّ الشريط المطاطي ونشر المغلفات المتبقية على مكتبه، وكان من بينها إشعار الناشر.

الفصل العاشر

لقد علمتْ زوجته، ولكنها لم تنبس ببنت شفة، ولم تُبدِ أيّ ردّ فعل. وجد غلينارد نفسه عالقاً في المشهد ذاته، محاولاً الهروب من ذكرياته، معتقداً أنّها قد تتلاشى بمرور الأيام، لكنه يفتح عينيه على حقيقة بقائها وحتمية مواجهتها. كان القرار الذي اتخذه في اليوم السابق قد سبب له حالة من التفاؤل والحماسة، لكن رد فعل أليكسا قد أطاح به في هاوية الإحباط والفتور من جديد. لم يكن دافعه إلى الاعتراف إلا دواءً مخدراً يُخفف عنه جلد الذات، لذلك حاول تحميل زوجته بعضاً من هذا العبء المرهِق، ويبدو أنها رفضت حمله، والآن يعتريه شعور بأن هذا العبء أصبح ثقيلاً جداً، ثقيلاً إلى الحد الذي لا قدرة له على تحمّله.

لحسن حظه كان لديه ما يكفيه من العمل الشاق، فالمرحلة الطويلة من العمل تُعدّ متنفساً له في مثل حالات التعاسة هذه. لقد ذهب إلى الغرب للمرافعة في قضية مهمة، وقد ربحها وعاد إلى شيء جديد يشغله. كانت أحوال العمل مزدهرة بما يكفي لتستحوذ على تفكيره حتى في أوقات استراحته. وعلى مدى أكثر من شهرين، لم يملك الوقت الكافي لمواجهة مشكلاته الخاصة. وليس بغريب عليه، وهو الذي لم يكن بعد ماهراً في فهم دقائق مكنونات ذاته، أن تختلط عليه الأحداث ويفسّر انعدام الشعور المؤقت الذي يعيشه على أنه إشارة إلى انتعاش صحّته المعنوية والأخلاقية.

اعتقدَ أنه يستعيد إحساسه بالتناغم، وأنه بات يرى الأشياء بشكلها الحقيقي، وأن محاولة استجدائه عطف زوجته وشفقتها ما هو إلا ضربٌ من الحماقة، وأن رد فعلها الهادئ كان نتيجة العناية الإلهية التي حمتهُ من عواقب أفعاله الطائشة. لم يكن يملك رفاهية الوقت التي تتيح له مراقبة أليكسا، لكنه استنتج أن الحكمة التي فقد الإحساس بها لحظة قد قادتها إلى قبول الواقع الذي لا مفر منه بصمت. وإن كانت هذه الصفة التي كسبتها التوّة بديلاً سيئاً من تلك العدالة العاطفية التي بدت أنها تتحلّى بها ذات مرة، فقد قبلَ هو هذا البديل بعدّه جزءاً يُساهم في الحفاظ على العلاقة الزوجية وإبقائها مقبولة. أيّ امرأة تلك التي تُحافظ على إحساسها المجرد بالعدالة عندما يتعلق الأمر بامرأة أُخرى؟ ربما لم تعدّ زوجته مشاعر السيدة أوبين المفعمة بالحنان تجاهه أمراً بغيضاً تماماً.

عندما بدأ ضغط العمل يخف واستطاع غلينارد العودة إلى منزله مبكراً، لاحظ أن غرفة الجلوس دوماً ما تكون مملوءة بالضيوف، وأنه، هو وزوجته، نادراً ما يحظيان بأمسية بمفردهما. وعندما كان يعود إلى المنزل متعباً كالعادة، كانت تخرج وحدها، كأنها من غير الممكن أن تُفكّر لحظة في التخلي عن بعض التزاماتها مقابل قضاء الوقت معه، مع أنها قد أظهرت قبلاً اهتماماً أقل تجاه المجتمع، ولم تبدِ مشاعر الندم لذلك حتى عندما ظلت عاماً كاملاً في الريف. لاحظ غلينارد أن لديه قاسماً مشتركاً مع معظم الأزواج، فالجميع يُخطئون في تفسير حماسة البدايات والهدوء المنزلي، إذ ينظرون إليه على أنه دليل على الحياة الزوجية المستقرة. بيد أنّ

أليكسا دائماً ما كانت تدحض نظريته هذه كنبتة عنيدة تُصرّ على تحطيم آمال زارِعها. طرأ تغيير ما على حياة أليكسا. من جهة، كان هذا التغيير إيجابياً، لأنها غدت أكثر حيوية ونضارة إن لم نقل أجمل. أصبح جمالها محسوساً أكثر، وكأنها أتقنت استخدام رهافة حدسها عن وعي وراحت تنثر عبق ذاتها وتأثيرها بحكمة فنان ماهر يدرك أهمية كل تفاصيلها. بالنسبة إلى ناقد محايد، كما يُصنّف غلينارد نفسه، كان فنها بالغ الوضوح أحياناً، فقد كانت محاولاتها للظهور بروحٍ خفيفة تفتقد العفوية، وفي بعض الأحيان كانت تثير استياءه بضحكتها التي تشبه ضحكة جوليا أرميجر. لكن كان لديه ما يكفي من الخيال ليدرك أن الزوج دائماً ما يلمح جانباً خافياً من طبيعة زوجته عندما يتعلق الأمر بالفنون الاجتماعية التي تتمتع بها الزوجة.

ومن هذا المنظور الساخر لعلاقتهما، وجد غلينارد نفسه متحرراً بشكل غريب من مشاعر القلق بشأن علاقة زوجته بفلاميل. وبمنتهى اللا مبالاة، رصد بسكينة تصرفاتهما البريئة. كان من المدهش بالنسبة إليه كيف أن التقليل من قدرِ زوجته يمنحه شعوراً بالارتياح مع نفسه. ورغم طابع البعد الذي كان يغلف علاقتهما، كانا يمتلكان نوعاً من التواطؤ الضمني. أجل، إنهما شريكان، فلا يمكن له أن يشعر بالغيرة بقدر ما يمكن لها أن تحتقره. فالغيرة التي كانت تشوب نقاء العلاقة في السابق، فقدت الآن معناها وأصبحت مجرد ظلٍ للماضي.

لم يكن غلينارد ميّالاً إلى استكشاف شطآن الأدب الممتدة، إذ لطالما تجاوز «الإشعارات الأدبية» في الصحف، فضلاً عن أنه لم

يكن يملك ما يكفي من الوقت لتصفح المجلات. وبهذا، لم تكن لديه أدنى فكرة عن الأصداء الأدبية الرنانة التي أثارتها *رسائل أوبين*، كما دفعه تراجع حديث الناس عن الكتاب وانخفاض تداوله إلى الاعتقاد أنهم توقفوا عن قراءته أيضاً. لقد منحه انحسار الجلبة حول الكتاب شعوراً زائداً بالطمأنينة. لكن هذا الإدراك، ومع أنه لم يهوّن عليه تأنيب ضميره، منحه قليلاً من الراحة النفسية، مثل مجرم ينزل عن آلة التعذيب ويُلقى في غياهب زنزانته المظلمة حيث لا يراه أحد.

في إحدى الليالي، عندما غادرته أليكسا قاصدةً حفلة راقصة، أخذ يُطالع المجلات الموضوعة على طاولتها. استقر نظره على نسخة من مجلة «*التوقعات الفلكية*» التي تصدرت غلافها صورة مارغريت أوبين. كانت الصورة نسخة من تلك التي استمر في الاحتفاظ بها على مكتبه مدة طويلة، لكن غبار الزمن قد أبهَت صورتها في ذاكرته، مشوّهاً هويتها الحقيقية، محوّلاً إياها إلى مفهوم مجرّد بعيد. لكنّ هذه الذكرى المفاجئة قرّبته إليها بطريقة لم يشهدها من قبل عندما كانت لا تزال على قيد الحياة، فهل كان ذلك لأنه بات يفهمها الآن أكثر؟ حدّق طويلاً إلى عينيها، واستحضر تفاصيل شخصيتها، ولمساتها اللطيفة، وانحناءة جفنيها المتعبة، وطريقتها السريعة في الانحناء إلى الأمام عندما تتحدث، وحركات يديها المعبّرة. كل ما كانت تحمله من جمال أنثوي لطالما افتقده، تسلل نحوه عبر نظرتها المتسامحة تلك. والآن، بعد فوات الأوان، منحته الحياة الوعي الأعمق لاكتشاف ذلك كله في هذه الصورة التي تمثل الجانب العدمي منها. وبرهةً،

وجد عزاءه في فكرة أنهما كانا معاً حقاً بأي ثمن وتحت مختلف الظروف. اعتراه شعور بالخجل، شعر بأنه يواجه الحقيقة عارياً تماماً ومكشوفاً في أعمق جوانب وعيه، وجهاً لوجه مع حبيبته. كان خجله عميقاً، وألمه متجدداً كجرح دامٍ. كان أشبه برجلٍ أيقظه الألم من سبات الموت.

استيقظ صباح اليوم التالي وفي قلبه تعبقُ رائحة الحياة. شعر بأن لقاءه بمارغريت كان تجديداً للقاءاتهما الرائعة قبلاً، ولكن بطريقة أجمل. سيطرت على ذهنه فكرة أنه يجب أن يراها مرة أُخرى، لكن الواقع ما لبث أن عاد ليفرض نفسه ويؤكد غيابها. راوده خوف فقدان الشعور بقربها منه، لكنها مع ذلك، لا تزال أقرب إليه من نفسه. كان حضورها هو الحقيقة الوحيدة في عالم الأوهام الذي يعيش فيه، كان يستحضر خلال ساعات عمله تفاصيل ماضيهما المندثر كله، ويعيش تلك اللحظات بدقة لا تُصدّق. كان غلينارد أشبه بمن فهم جوهر الحياة وتمكن من المضي قدماً فيها، لكنه لا ينفك يقلبُ صفحات الماضي ويعود إلى لحظات شبابه بعينين تملؤهما الدهشة. اللحظات كلها التي ظن أنها عديمة الأهمية كانت تُشكل فارقاً، كان لجميعها معناه الخاص. غلّفَ شعور من المرارة فرحته باستعادة تلك الذكريات لأنه أدرك ما فاته، لقد كان غبياً بشكل يبعث بالشفقة، لكنه لولا الأزمة التي يمر بها الآن، لعاش في جهلٍ تام راضياً عن خسارته. أما المفارقة الساخرة فهي ارتكابه هذه الأفعال التي سمحت لذكريات مارغريت بأن تعود لتلاحقه، كأن دم تضحيتها الذي أُريق في سبيل نشره تلك الرسائل قد استحال لعنة تتربص به.

في تلك الأمسية، تناول غلينارد وأليكسا العشاء وحدهما، ثم تبعها بعد ذلك إلى غرفة الجلوس. لا يشعر بالحاجة إلى تجنبها بعد الآن، فقد أصبح نادراً ما يُدرك وجودها. بعد بضع كلمات، ساد بينهما الصمت، وجلس غلينارد ينفث دخان سيجارته محدقاً إلى نار الموقد. لم يكن تصرّفه هذا بقصد جعلها تشعر بأنه لا ينوي الحديث معها، بل كان يشعر برغبة غريبة في أن يكون لطيفاً معها قدر الإمكان، لكنه دوماً ما ينسى وجودها. لم يعد لديها ذلك البريق وتلك النضارة التي تُشعره بدفء الحياة، بل أصبح حضورها هشّاً كظلّ، شعر غلينارد بأنه يستطيع تجاوزه بسهولة.

نهضت أليكسا وأخذت تتحرك في أرجاء الغرفة. بدت كأنها تبحث عن شيء ما، واعتدل غلينارد في جلسته مستفسراً عمّا تريد.

- «العدد الأخير من مجلة *التوقعات الفلكية*، أظن أنني تركته على هذه المنضدة». لم يعقب غلينارد على كلامها. سألته: «ألم تره؟».
- «نعم، لم أره». أجاب ببرود. كان غلينارد قد أقفل على المجلة في درج مكتبه.

وقفت بمحاذاة الرف العلوي للموقد مواجهة غلينارد، وعندما نظر إليها، التقت نظراتهما المترددة. قالت أليكسا بنبرة هادئة:

- «كنتُ أقرأ في تلك المجلة مقالاً يستعرض مراجعة *رسائل السيدة أوبين*»، أنهت كلامها وقد علا الاحمرار وجنتيها.

انحنى غلينارد ليُلقي بسيجارته في النار. تمنى بشدة لو أنها لم تلفظ اسم المرأة الأُخرى، هذا كل ما كان يهمه.

- «يبدو أنكِ مواظبة على القراءة».

قالت، وهي ما زالت تقف قبالته:

- «كنتُ أحتفظ بها لأجلك، ظننتُ أن الأمر قد يهمك»، قالت عبارتها بنبرة إصرار لطيفة.

وقف على قدميه ثم استدار. كان على يقين بأنها تعلم أنه قد أخذ المجلة، فراوده شعور بأنه يكرهها مجدداً.

قال بلهجة غير مبالية:

- «لا وقت لديّ لمثل هذه الأشياء». وبينما كان يهمّ بالمغادرة، سمعها تتقدم خطوة سريعة نحو الأمام ثم تتوقف وتجلس في الأريكة التي نهض منها دون أن تنطق بكلمة.

الفصل الحادي عشر

تحت أشعة شمس فبراير الجميلة، سلك غلينارد طريق المقبرة حيث ترقد السيدة أوبين. شعر بأن خطواته تقوده دون وعي منه، ولم يسعَ إلى إيجاد سبب وراء ذلك. كانت رغبته الوحيدة هي الوقوف أمام قبر مارغريت، لا لغايةٍ سوى حاجته إلى تأكيد وجود رابطٍ قوي لا يزال يربطه بها، فلا سبيل لإصلاح ما مضى. راوده شعور عذب بالراحة التي تصاحبُ توقف ألم جسدي توقفاً مفاجئاً، كأن أفكاره كلها قد هدأت ولم يعد هناك حاجة إلى تحليلها.

أتاحت هزلية الموت نقل جثمان السيدة أوبين لتوارى الثرى إلى جانب زوجها في مثواه الأخير، ومع معرفة غلينارد أنها دُفنت في مكان قريب من نيويورك، فإنه لم يزر قبرها قط. والآن، بينما تطوي خطواته الطريق نحو المقبرة، يقشعرُّ بدنه بمزيج من الخوف والبرد. يُفكّر في أنها ماتت وحيدة، تماماً كما عاشت، وما من عائلة كانت تتبع نعشها. أمّا «مُشيّعوها المرموقون» فلم يمتلكوا أدنى فكرة عن المرأة التي كانوا يسيرون في موكبها الجنائزي، إذ لم تكن بالنسبة إليهم أكثر من مجرد كاتبة مشهورة. لم يستطع غلينارد أن يتذكر في أي فصل من فصول السنة دُفنت مارغريت، لكن حالته المزاجية جعلته يتخيل أنها رحلت في يوم كهذا اليوم، تحت أشعة شمسٍ ساطعة كشمس فبراير هذه التي تمنح الصفاء دون الدفء. امتدت أمامه الأزقة البيضاء على مد النظر، وأخذ يسير بين القبور التي كُتبت عليها عبارات نمطية

تُعبر عن مأساة الموت، وكأن جميع العبارات المُبتذلة التي نُطقت يوماً قد تحوّلت إلى شواهدَ رخامية تُقام فوق رقاد الموتى المستسلمين. توزعت هنا وهناك شواهد وتماثيل مبتذلة لملائكة تحتضن حزناً خالصاً. قد يكون لأكثر الكلمات تكراراً وقعٌ عميق ومعانٍ نادرة في ذلك المكان الذي تشوبه رائحة الموت، لكن غالباً ما تبدو تلك الصفوف اللا نهائية من الشواهد تجسيداً لتلك العموميات السهلة حول الموت التي لا تُقلق راحة الأحياء. وغريزياً، وبينما كان غلينارد يمشي بين القبور، وقع نظره على تلة صغيرة تحمل شاهداً منعزلاً. نسيَ أن الموتى نادراً ما يخططون لمنازلهم الأخيرة. شعر بوخزٍ في قلبه عندما وقعت عيناه على الاسم الذي كان يبحث عنه على قاعدة حجرية ضخمة تنهض بارتفاع جارح في تقاطع مسلكين بين القبور.

«كم كانت لتكره ذلك»، تمتم بمرارة.

جلس غلينارد على مقعد بالقرب من القبر، وراح يتأمل الشاهد المنتصب أمامه مثل منزلٍ مهجور. لم يقوَ على تصديق أن مارغريت أوبين ترقد هناك. كان ذلك صباح يوم الأحد، والناس المتشحون بالسواد يطوفون حول القبور ويضعون الزهور على الأضرحة المكسوّة بالجليد. لاحظ غلينارد أن القبور المجاورة قد زُيّنت حديثاً، وتخيل أن شيئاً يتحرك أسفل التربة، وكأن التلال العارية تتوق إلى ذلك المطر الرمزي الذي سيكرم رُفات من استراحوا هنا. نهض بسرعة واتجه صوب مدخل المقبرة، ثم سار ناحية البيوت الزجاجية ودخلها طالباً بعض الزهور.

- «هل تُريد نوعاً محدداً من الزهور؟»، سأل الرجل الشاحب الممسك بمرش المياه.

هز غلينارد رأسه نافياً.

- «تريد بعض الأزهار الجاهزة إذن، تفضل من هنا». فتح البائع باباً زجاجياً وقاده عبر ممر أخضر. كان الهواء الرطب والحار عابقاً برائحة الأزالية البيضاء والزنبق الأبيض والليلك الأبيض. الزهور كلها كانت بيضاء وكأنها امتداد سرّي لصفوف الأحجار الرخامية الطويلة، بعبيرها الذي بدا أنه يطغى على رائحة الموت. شعر غلينارد بالدوار بفعل الرائحة القوية، وبينما كان يتكئ على عتبة الباب منتظراً الزهور، غمره شعور عميق بقرب مارغريت أوبين منه. لم يكن شعوره نابعاً من أوهام عميقة، بل نتيجة إحساسٍ حقيقيّ بالحياة تنبض دافئة بين ذراعيه.

لفحه الهواء الشديد عندما خطا خارجاً. عاد أدراجه إلى القبر وأخذ ينثر الزهور فوقه. ذبلت حافات البتلات البيضاء كورق أيبسهُ البرد. وبينما كان يرقبُ مشهد الزهور الذابلة، تلاشى طيف مارغريت، وتجمدت ذكراها الدافئة.

الفصل الثاني عشر

لم تكن الدوافع وراء زيارته المقبرة واضحة، باستثناء أنها محاولة أخيرة للهروب من قبول زوجته البارد واللا مبالي أفعالَه المعيبة. بدا له أن إدراك مدى قباحة أفعاله من شأنه أن يُخفف وطأة آثارها وعواقبها. كانت كبرى مخاوفه هي أن يُصبح فريسة ما اقترفت يداه. لقد أهانته لا مبالاة زوجته، إذ بدا له أنها أنزلته إلى مستوى دناءة جرمه، في حين كانت مارغريت لتشمئز من أفعاله هذه بقدر ما يثيره في نفسها من شفقة. جذبته فكرة الشفقة مجدداً نحو مارغريت التي شعر بأنها تفهم دون أن تعلم، بعكس أليكسا التي تعلم، لكنها لا تفهم أبداً.

وفي آخر محاولاته لعيش حالة الندم، قادته شفقته على نفسه إلى الرغبة في العزلة والتأمّل. لقد غرق في هلوسات مرضية، وفي رؤى يائسة حول ما قد تكون عليه الحياة مع مارغريت أوبين. شعر في غمرة الاضطرابات التي عاناها بأن الظلم الذي ارتكبه بحق مارغريت يربطهما معاً بشكل غريب.

ولرغبته في الانغماس في أحاسيسه هذه، بات يخرج عصر أيام الأحد في نزهات منعزلة تستمر حتى الغسق. كانت الأيام طويلة، ونسيم الربيع يملأ الأجواء، وقد قادته خطواته المعتادة نحو الحديقة والمناطق المحيطة بها.

ذات يوم أحد، وبعد أن سئم التجوال دون وجهة ولا هدف، استقلّ عربة عند إحدى بوابات الحديقة، وطلب من السائق أن يسلك طريق ريفرسايد في تلك الظهيرة الملبدة بالغيوم الرمادية

والنسمات الشرقية الباردة. سارت العربة ببطء وغلينارد جالسٌ مسنداً ظهره إلى المقعد، يحدق بعينين ذابلتين إلى الدروب المهجورة التي تتعرج تحت أغصان شجرٍ عارٍ وتحاذي ضفافاً عشبية نضرة، إلى أن جذب انتباهه شخصان يسيران أمامه. كانا يمشيان وحدهما في الدرب، ويتحركان بوتيرة تجعل خطواتهما تبدو كأنها تتكيّف مع محادثة تتخللها انقطاعات تأملية، إذ كانا يتوقفان في بعض الأحيان، ويمشيان في أخرى. عندما توقفت السيدة واستدارت نحو شريكها، انكشف وجهها أمام غلينارد، لتظهر له ملامح زوجته، أمّا الرجل الآخر، فكان فلاميل.

شعر غلينارد بحرارة الدماء في جبهته. نهض بطريقة هستيرية ودفع الغطاء الموجود في سقف العربة التي يجلس داخلها، ولكن عندما التفت السائق ليرى ما الخطب، عاود غلينارد الجلوس في مكانه صامتاً. وليرضي فضول السائق بشأن ذلك التصرف الغريب، ناداه قائلاً: «استدر، لنعد أدراجنا، أو قُد بنا إلى أي مكان آخر، أنا في عجلة من أمري».

ومع تغيير العربة مسارها، ألقى غلينارد نظرة أخيرة على الثنائي. لم يكونا قد تحرّكا بعد، وقفت أليكسا حاسرة الرأس تستمع باهتمام لحديث فلاميل.

- «يا إلهي، يا إلهي»، أخذ غلينارد يئن.

يا له من شعور بشع بغيض لم يقوَ على فهمه. لم تكن أليكسا تعني شيئاً بالنسبة إليه، بل كانت أقل من أن تعني أي شيء. ومع ذلك، شعر بالدماء تندفع في رأسه وأذنيه وبالغشاوة في عينيه. وبسبب إدراكه أن شعوره هذا نابع من غريزته بوصفه رجلاً، وأن

رد فعل جسمه العنيف لا علاقة له بأفكاره ومشاعره، فقد تحولت مشاعره من الغضب والحزن إلى الاشمئزاز. كان شعور القرف يخنقه، ودخان الحياة السامّ يعبق في رئتيه، كان مشمئزاً بصورة لا يُمكن وصفها.

أعادته العربة إلى منزله، وعندما ترجّل، كان الضيوف قد وصلوا التوّة، إذ كانا يُقيمان مأدبة عشاء صغيرة تلك الليلة. عندما نظر إلى زوجته، كان جمالها استثنائياً وهادئاً كأمواج بحر صيفيّة في ساحل مُظلم. لقد أفزعه حُسنها الذي يخطف القلوب.

جلس في مكتبه حتى ساعة متأخرة تلك الليلة. سمع الخادمة تُغلق الباب الأمامي، ثم تبعها صوت خطوات أليكسا التي صعدت إلى الطابق العلوي وأطفأت الأنوار. شعر بأن دماغه أشبه بقاعة فارغة واسعة يرتد الصدى عن جدرانها. فكرةٌ واحدة كانت تطرقُ أبواب عقله دون نهاية... أخيراً، جرّ كرسيّه نحو الطاولة وشرع يكتب رسالة، ثم عنوَن الظرف عندما انتهى. وبعدها أعاد قراءة ما كتبه بتأنٍّ.

«عزيزي فلاميل،

أُقدم اعتذاري عن تأخري في إرسال الشيك المرفق إليك، الذي يُمثّل النسبة المتفق عليها الخاصة ببيع «الرسائل».

أثق بأنك ستعذر إهمالي وإغفالي هذا».

مع خالص تحياتي،

ستيفن غلينارد».

خرج من المنزل المُظلم وألقى بالرسالة في صندوق البريد عند الزاوية.

عصر اليوم التالي، بقي في العمل حتى وقت متأخر، وبينما كان يستعد للمغادرة، سمع صوت أحدهم من الغرفة الخارجية يطلب مقابلته. اعتدل في جلسته من جديد، وظهر فلاميل.

رمق بعضهما الآخر برهة عندما أزاح غلينارد كرسياً يعوق طريق فلاميل الذي دنا منه واضعاً قصاصة من الورق على المكتب وهو يقول:

- «صديقي العزيز، ما هذا بحق السماء؟».

أجاب غلينارد وقد تعرّف إلى الشيك الذي كتبه:

- «لقد كنتُ مُهملاً. كان من المُفترض أن تحصل عليه في وقت سابق».

تميزت نبرة فلاميل في بداية الحديث بنغمة الدهشة الهادئة، لكن عند هذه اللحظة تغيرت لهجته وسأل بانفعال:

- «على أيّ أساس؟».

ابتعد غلينارد عن المكتب ووقف متكئاً إلى مجلدات خزانة الكتب، ثم قال:

- «على أساس أنك بعت *رسائل السيدة أوبين* نيابةً عني، لذلك وجدتُ أن الوسيط في مثل هذه الحالات يستحق نسبة من أرباح المبيع».

قاطعه فلاميل:

- «تقول إنكَ «وجدتَ»، فهل هذا اكتشاف حديث؟».

- «أجل، يتضح هذا من عدم إرسالي الشيك بصورة فورية، فأنا جديد في هذا المجال كما تعلم».

- «ومتى وجدتَ أن هناك صلة تربطني بهذا العمل؟».

احمرّ وجه غلينارد وارتفعت نبرة صوته قليلاً:

- «هل تلومني على عدم تذكر ذلك في وقت سابق؟».

فكر فلاميل، الذي تحدث بنبرة سريعة تخفي بعض الغضب، في الجملة الأخيرة لحظةً، ثم قال بنبرته الطبيعية الممزوجة بروح الدعابة: «يا إلهي، أنا لا أفهمك!».

همس غلينارد وقد بدا أن التحوّل في جوهر الحديث قد أزعجه:

- «الأمر بسيط وواضح».

- «بسيط وواضح؟ هل تعرض عليّ المال مقابل خدمة أسديتها لك؟ أتساءل ما قد تكون توقعات أصدقائك الآخرين».

- «لم يكن بعض أصدقائي ليقبلوا بالمهمة. أمّا من لا مانع لديهم، فكانوا على الأرجح ليتوقعوا أن ينالوا حصتهم».

رفع غلينارد نظره إلى فلاميل وتأمل كل منهما الآخر. شحب وجه فلاميل وعض على شفتيه، لكنه حافظ على نبرته العادية:

- «إن كنت تقصد أن العمل لم يكن لائقاً، فإنك تُدين نفسك لأنك من اقترحه في الأصل. ولكن بالنسبة إليّ، لم أرَ، ولن أرى، أي سبب يمنع نشر تلك الرسائل».

صاح غلينارد:

- «هذا كل ما في الأمر؟».

- «ماذا؟»، رد فلاميل باستغراب.

- «إن يقيني بقبولك نشر تلك الرسائل هو ما دفعني إلى اللجوء إليك، فعندما تكون لدى المرء بضائع مسروقة عليه بيعها أو رهنها فإنه لا يأخذها إلى مركز الشرطة».

- «مسروقة؟»، ردد فلاميل. «أكانت الرسائل مسروقة؟».

انفجر غلينارد ضاحكاً:

- «إلى متى تتوقع مني أن أستمر في التمثيل بشأن الرسائل؟ أنت تعرف تمام المعرفة أنها كُتبت لي».

نظر فلاميل إليه مطولاً وقال:

- «حقاً؟ لم أكن على علم بذلك».

- «قل لي إنك لم تشك في ذلك حتى»، قال غلينارد ساخراً.

صمت فلاميل قليلاً ثم قال: «ربما عليّ أن أُذكرك أنني -لنفترض أنني شعرت بالفضول بشأن هذا الأمر- لم تكن لدي أي وسيلة لمعرفة أن الرسائل كُتبت لك، لأنك لم تُطلعني على النسخ الأصلية».

- «ما الذي يُثبت صحة كلامك؟ هناك ألف طريقة لاكتشاف الأمر بسهولة بالغة».

نظر فلاميل إليه بازدراء وقال:

- «ربما تختلف أفكارنا المتعلقة بالأشياء التي يمكن فعلها بسهولة، لكن اكتشاف ذلك ليس سهلاً بالنسبة إلي».

بدأ غضب غلينارد المحتقن في داخله يخرج على شكل كلمات:

- «قد يُثير اهتمامك أن تعرف أن زوجتي تعلم بالفعل حقيقة أمر الرسائل، وحقيقة تعاوننا لنشرها. إنها تعلم منذ بضعة أشهر...».

- «يا إلهي!»، قال فلاميل ببطء.

علم غلينارد أنه تمكن بعد أن قال كلماته الأخيرة من ليّ ذراع فلاميل. كان جسد فلاميل متماسكاً لكن تعابير وجهه المتبدلة

أظهرت بوضوح تسلل الصدمة إليه.

كانت كل كلمة من كلمات غلينارد تُصيب هدفها تماماً، لكنه شعر بأن الغاية الواضحة والأساسية من الكلمات قد ضاعت أمام الألم الذي كانت تُسببه. أدرك غلينارد الآن أن فلاميل لم يكن ليخونه، وهذه الحقيقة بدورها قد زادت غضبه. لم ينبس غلينارد ببنت شفة في انتظار أن يتكلم فلاميل.

- «إن كانت قد علمت بالأمر، فليس من خلالي بالتأكيد»، كانت هذه الجملة هي ما انتظره غلينارد.
- «من خلالك؟ من تظن نفسك؟ من قال إنها علمت من خلالك؟ هل تفترض أنني أفوّض الأمر لك أو لأي شخص آخر في هذه المسألة لإبقاء زوجتي على اطلاع بأفعالي؟ لم أتخيل أن غرورك الفظيع يمكن أن يعميك إلى هذا الحد. زوجتي تعرف الحقائق من خلالي أنا»، قال غلينارد كلماته بنبرة ثابتة وهو يحاول ترميم هيكل كرامته المكسور.

ظل فلاميل صامتاً يستوعب الكلمات دون أن يرد. كأن قوة انفجار غلينارد زادت ثباته، وعندما تكلم أخيراً فعل ذلك بطريقة هادئة ومدروسة كأنه هو من يختار تحديد مجرى الحديث:

- «ما زلت عاجزاً عن فهم مغزى تصرفك إذاً».
- «عاجز»؟.

أشار فلاميل بيده إلى الشيك ثم أضاف: «اعتقدتُ في بداية حديثك أنك تقدم لي رشوة، لكنني أرى الآن أن غايتك إهانتي. في كلتا الحالتين، هذا جوابي».

مزّق فلاميل الشيك وألقى القصاصات في وجه غلينارد،

واستدار خارجاً من المكتب.

أخذ غلينارد رأسه بين راحتي يديه. كان يأمل استعادة احترامه ذاتَه من خلال إهانة فلاميل ومهاجمته، لكنّ رياح الحوار جرت عكس ما تشتهي سفن توقعاته. ومع أن الهجوم الذي شنه خفف حدّة غضبه، لكنّ الألم غير المتوقع الذي سببته كلماته لا يُغير حقيقة أن سلاحه قد دُمّر في يديه. لقد رأى الآن أن غضبه تجاه فلاميل كان الإسقاط الأخير للاشمئزاز العاطفي من الذات. ولم يخفف إدراكه الحقيقة شعور الكراهية الذي يُضمره تجاه الرجل، بل جعل الأعمال الانتقامية غير مجدية ببساطة. لقد كان انعدام الرغبة لدى فلاميل في الشجار معه هو آخر درك إذلال وصل إليه.

وسط شعور المهانة الذي سيطر عليه، صدمه إدراكه أن لا مبالاة زوجته وتجاهلها لا يقلّان سخافة وانحطاطاً مقارنة مع محاولاته الدائمة إعادة إنعاش ماضيه العاطفي، إذ لطالما عاش في عالم مزيّف، وكانت عواطفه أشبه بجوقة متملقين هدفهم تغذية غروره. وبارتياح غريزي لشخص أدرك الحقيقة، شعر بأن أسس ذلك العالم تنهار فوق رأسه.

كان الغسق يلف الأفق عندما غادر غلينارد مكتبه وسار ببطء نحو منزله وسط حالة من الضياع التام التي ترافق مثل هذه الأزمات النفسية. لم يدرك أنه يفكر في زوجته إلا عندما وصل إلى باب المنزل، لقد اكتشف بمفارقة غير مقصودة، أنها عادت من جديد لتسيطر على وعيه، وتكون النقطة المحورية التي تدور حولها أحاسيسه.

الفصل الثالث عشر

لم يخطر على باله ولو لحظة أنها ربما لم تفهم المغزى من تعمّده وضع الظرف بين يديها. ماذا إن تجاوزت الظرف معتقدةً أنها أعمال خاصة بأحد العملاء في أثناء تفقدها الأوراق على عجل؟ ما الذي قد يمنعها أن تستنتج على سبيل المثال، أن غلينارد كان محامي الشخص المجهول الذي باع رسائل أوبين، الأمر الذي لا يلفت انتباه سيدة غير فضولية مثلها؟

في أثناء العشاء، وضع غلينارد شوكته جانباً ورمقها بنظرة من بين ظلال الشموع. وسرعان ما توصّل إلى التفسير الآخر لعدم اكتراثها. كانت تميل برأسها بالطريقة نفسها التي شاهدها عندما كانت بصحبة فلاميل أمس. لقد عاد إليه انطباع ذلك المشهد، كان الأمر بسيطاً بما فيه الكفاية، ففي النهاية، لم تعد أليكسا تكترث لأمره لأن اهتمامها تحوّل نحو رجل آخر.

عندما تبعها إلى الطابق العلوي، شعر بغضبه الخامل يتصاعد فجأة، وتلاشت التعقيدات المصطنعة لمشاعره. لقد برأها من أي تآمر ضده، وشعر فقط بأنه يُحبها وأنّها قد أقصَتهُ وهربت منه. لقد هيمنت عليه هذه الفكرة بغرابة، شعر بأنهما قد اقتحما مرحلة الحب معاً ثم خرجا منها منفصلين كأنهما لم يدخلاها قطّ. فكّر، وهو غارق في تأمّلٍ عميق، في أن الشغف والعواطف تتركان أثرهما الواضح في شخصية المرء وسلوكه، لكن هذا الحب قد مرّ دون أثر يُقتفى، كمياه بحرٍ عادت إلى حالتها الطبيعية بعد

مرور إحدى السفن.

جلست أليكسا كعادتها إلى جوار المصباح، في حين انحنى غلينارد نحو الموقد وهو يحرّك بلا اهتمام الأشياء الصغيرة الموضوعة على رف الموقد العلوي.

فجأة رأى انعكاس صورتها في المرآة. كانت تنظر إليه. استدار والتقت نظراتهما.

مشى عبر الغرفة.

بدأ الحديث قائلاً:

- «هناك شيء أرغب في أن أحكيه لكِ».

نظرت إليه وقد ازدادت حمرة وجنتيها. لاحظ مجدداً، بغيرة موجعة، كيف ازداد جمالها دفئاً ومعنى، وكأنها كأس كريستالية تمتلئ شراباً عذباً. نظر إليها بسخرية مريرة وقال:

- «لم يسبق لي أن منعتكِ من رؤية أصدقائكِ هنا»، قال بانفعال وأضاف: «لماذا تذهبين لرؤية فلاميل في أماكن بعيدة؟ لا شيء يحط من مكانة المرأة بقدرِ...».

قاطعتهُ وهمّت بمواجهته حتى أصبحت على بعد خطوات قليلة منه:

- «ما الذي ترمي إليه؟».

- «لقد رأيتكِ معه على طريق ريفرسايد يوم الأحد الماضي»، قال وقد أوقد تذكّر الموقف نيران غضبه.

همست: «حقاً!»، وغرقت في كرسيّها وأخذت تلعب بسكين ورقية كانت موضوعة على الطاولة إلى جوارها.

أغضبه صمتها.

- «أهذا كل ما تريدين قوله؟»، انفجر غاضباً.
- «هل تريد مني أن أشرح؟»، سألته بنبرة متفاخرة.
- «هل تُلمحين إلى أنني لا أملك الحق في استيضاح ذلك؟».
- «لا ألمح إلى أي شيء، سأخبرك كلّ ما ترغب في معرفته، لقد ذهبت للتنزه مع السيد فلاميل لأنه طلب مني ذلك».
- «لم أفترض ذهابكِ دون دعوة، ولكن هناك أشياء معينة لا تفعلها المرأة العاقلة. فهي لا تتسلل لتخرج مع الرجال وتلتقيهم في أماكن بعيدة. لماذا لم تلتقِ به هنا؟».

قالت مترددة: «لأنه أراد أن يراني على انفراد».

- «حقاً؟ وهل لي أن أسأل إذا ما كنتِ تُلبين جميع رغباته بلطف هكذا؟».
- «لا أعلم إن كانت لديه أي أفكار أخرى تخصني». توقفت مرة أخرى ثم تابعت بصوت يحمل نغمة تحذيرية: «أراد أن يودعني، سيرحل بعيداً».

حدّق غلينارد مشدوهاً: «سيرحل بعيداً؟».

- «سيسافر غداً إلى أوروبا، وسيغيب مدة طويلة. افترضتُ أنك تعلم ذلك».

أثارت جملتها الأخيرة سخطه فردّ قائلاً:

- «هل نسيتِ أنكِ مصدر أي معلومات أعرفها عن فلاميل؟ فلاميل ليس صديقي بل صديقكِ أنتِ. في الحقيقة، لطالما تساءلت عن سبب مبالغتك في التعامل اللطيف معه مع أنكِ ترين بوضوح أنني لا أحبه».

لم تُجب أليكسا بسرعة، بل بدت كأنها تختار كلماتها بعناية، ليس من أجلها، بل من أجل غلينارد الذي ازداد غضبه لأنه اعتقد

أنها كانت تحاول تجنّبه.

قالت بعد لحظات من الصمت:

- «فلاميل صديقك في الأصل، لم أعرفه قطّ إلى أن تزوجتك. أنت من أحضره إلى منزلنا، وبدا لي أنك كنت تتمنى أن يروق لي».

أطلق غلينارد ضحكة قصيرة، إذ لم يكن يتوقع أن يكون دفاعها عن نفسها ضعيفاً إلى هذا الحد. لقد أدرك أنها ليست امرأة ذكية أبداً.

- «كم هو جميل احترامكِ رغباتي، لكنها ليست المرة الأولى التي يرتكب فيها الرجل خطأ في تعريف أصدقائه إلى زوجته. كان حريّاً بكِ، على أيّ حال، أن تُلاحظي أن حماستي تجاهه قد خفّت، لكن يبدو لي أن رغبتكِ في إسعادي تضاءلت في الوقت ذاته».

استقبلت كلماته بصمت بدا كأنه ألغى تأثير السخرية.

- «أهذه هي غايتك؟»، تابع غلينارد بإصرار.

- «لا!» أجابت بشكل مفاجئ ومباشر. «لقد لاحظت منذ مدة أنك لم تعد تحبه، ومنذ ذلك الحين..».

قاطعها بالقول: «حسناً، وما الذي حدث منذ ذلك الحين؟».

- «اعتقدتُ أنك لا تزال تريد مني أن أكون لطيفة معه لأسباب تخصك».

- «حقاً»، قال غلينارد بتهكم، لكنّ سخريته انقشعت، فقد جعله شيء ما في صوتها يشعر بأنهما تائهيَن في صحراءٍ من القلق

حيث تتسلل المعاني متوارية خلف الكلمات بلا فائدة.

- «ولم ظننتِ ذلك؟ هل لأنه أخبركِ أنني أُدين له بالتزامات؟»، قال وقد صعد الدم إلى جبينه.

امتقع وجهها وقالت باستغراب: «مدينٌ بالتزامات؟».

- «يا إلهي! دعينا نواجه الأمر دون مزيد من المماطلة. ألم يُخبركِ أنني أنا من نشرت *رسائل السيدة أوبين*؟ أجيبيني!».

- «لا»، أجابت. وبعد لحظة بدت فيها مستغرقة في التفكير، أضافت: «لم يخبرني أحد».

- «إذاً، فأنت لا تعرفين؟».

بدت أليكسا كأنها تبذل جهداً كبيراً في الحديث: «لم أعرف إلى أن...».

- «إلى أن أعطيتكِ تلك الأوراق كي ترتبيها؟»، قال غلينارد.

أحنت رأسها حزناً.

- «ثم فهمتِ بعد ذلك؟».

أجابت: «أجل».

نظر إلى وجهها الجامد، ثم قال والكلمات تخرج من فمه بصعوبة: «هل سبق أن شككتِ في الأمر؟».

أجابت بما يشبه الهمس: «أجل، في بعض الأوقات».

- «لماذا؟ بسبب بعض الأقاويل التي سمعتِها؟».

رمقته بنظرة يشوبها الازدراء: «لم يقل أحد شيئاً، ولم يُخبرني أحد بأي شيء، بل سلوكك هو من أخبرني».

- «سلوكي؟».

- «كنتَ تضطرب كلما ذُكر الكتاب، والأشياء التي كنت تقولها،

وتكررها، غضبكَ وانفعالك، لا أستطيع أن أشرح كل شيء».

دنا منها دون وعي منه. كان يلهث مثل رجلٍ أنهى سباقاً التوّة. تلعثمت كلماته وهو يقول:

- «كنتِ تعلمين إذن، لطالما علمتِ».

لو أنها قالت إنها تحب فلاميل لما شعر بهذا الألم الذي يشعر به الآن، وكانت لتبقى أقرب إليه.

أخذ يُردد: «كنتِ تعرفين، كنتِ تعرفين». وفجأة، خنقت المرارةُ صوته.

- «يا إلهي!»، أخذ يبكي. «راودتكِ الشكوك بادئ الأمر، ثم عرفتِ الحقيقة، عرفتِ حقيقة هذا الشيء القبيح، حقيقة هذه القذارة. كنتِ تعرفين طوال أشهر، لأن أشهراً طويلة مرت قبل أن أضع ذلك الظرف بين يديكِ، ومع ذلك، لم تحركي ساكناً. لم تقولي أي شيء! تابعتِ حياتكِ معي وكأن ما جرى لا يؤثر في حياتنا. ما خطبكِ؟ إنه لأمرٌ عجيب. ألا ترين الفضيحة المشينة في الأمر؟ ألا تلاحظين كيف شاركتِني العار الذي اقترفتُه؟ أليس لديكِ أيّ شعور بالخجل والخزي؟».

كان يتحدث بشفافية تامة، والكلمات تتدفق من فمه كسيل حمم بركانية. أراد الشعور بوقع كلماته عليها واحتمالية أن يستدعي غضبه سخريتها. لكن شيئاً ما جعله يشعر بأنهما قد تجاوزا بالفعل مرحلة مقابلة الأذية بمثلها، وأن أي شعورٍ إذا ما تحرّك في داخلها، فإنه لن يكون شعور السخرية والازدراء أبداً.

وهذا ما جرى، إذ نهضت ببطء ودَنَت منه.

- «ألم يكن لديك ما يكفيك؟»، قالت بصوت تغلفه شفقة غريبة.

حدق إلى عينيها متسائلاً:

- «ما يكفيني؟».

- «ما يكفيك من التعاسة والبؤس».

شعر بأن سلاسل ثقيلة من الحديد قد أُزيحت عن كتفيه. همسَ قائلاً:

- «لاحظتِ ذلك إذن...؟».

- «يا إلهي»، راحت أليكسا تنتحب. جثت قبالته مخفية ألمها بين ركبتيه. بقيا صامتَين مدة طويلة، تعصف بهما رياح الخزي الهوجاء وآلامها المبرحة.

عندما رفعت وجهها عن ركبتيه، أزاح غلينارد وجهه ليتجنب النظر إلى عينيها. كان ازدراؤها إياه أقل أذية من مشهد دموعها على يديه.

تحدثت بهدوء كطفل أنهى نوبة من البكاء.

- «أكان ذلك من أجل المال؟».

حرّك شفتيه بما يوحي بالإيجاب.

- «أكان ذلك هو الإرث الذي بنينا زواجنا عليه؟».

- «أجل».

تراجعت إلى الوراء ونهضت على قدميها. جلس يراقبها وهي تبتعد عنه.

- «أنتِ تكرهينني»، قال بانكسار.

لم تنطق بأيّ إجابة.

- «قولي إنكِ تكرهينني»، أصرّ عليها.

أجابت بابتسامة غريبة: «الأمر ليس بهذه البساطة». جلست

على كرسي بالقرب من طاولة الكتابة مسندةً جبهتها إلى يدها.

«هل كان الأمر يستحق عناء هذه القباحة؟»، سألته.

- «يستحق؟».

- «أقصد المال. هل تقاضيتَ مبلغاً كبيراً؟».

- «المال؟».

لم يضع هذا الجانب من النقاش في الحسبان إلى درجة أنه لم يفهم تماماً مغزى سؤالها.

- «يجب أن تُعيده»، قالت بإلحاح. «هل تستطيع؟».

- «أجل، أستطيع ذلك». أجاب بتأنٍّ.

- «كنتُ لأفعل أي شيء في سبيل ذلك»، قالت بنبرة تشجيعية.

أومأ برأسه: «بالطبع». جلس ينظر إليها بعينين جافتين محتقراً نفسه. وأضاف: «هل تعتقدين أن ذلك سيُحدث فرقاً كبيراً؟».

- «فرقاً كبيراً؟»، سألت باستغراب.

- «فرقاً في الطريقة التي أشعر بها تجاه نفسي، أو تشعرين بها تجاهي».

هزت رأسها بالنفي.

- «أجل، هذا ما توقعته»، قال متنهّداً.

- «إنه الجزء الوحيد الذي يمكننا إصلاحه».

قال ونهض مقترباً منها: «رباه! إن كانت هناك إمكانية لتصحيح الأمور، فلمَ لم تتكلّمي قطّ؟».

- «ألم تُجب عن ذلك بنفسك؟».

- «أجبتُ بنفسي؟».

- «لقد قلتَ ذلك التوّة، عندما أخبرتني أنك فعلت ذلك من

أجلي».

توقفت برهة ثم تابعت وهي تُدلي بملاحظة عميقة: «كنت سأقول لو استطعت مساعدتك».

- «لكن لا شكّ أنكِ قد احتقرتني».
- «لقد أخبرتكَ أن الأمر ليس بهذه البساطة».
- «ولكن كيف يمكنك الاستمرار على هذا النحو؟ كيف يمكنك كره المال؟».
- «كنت أعلم أنك ستتحدث في الوقت المناسب. أردت منك أولاً أن تكره ذلك كما كرهته أنا».

كان يحدق إليها بشيءٍ من الرهبة. تمتم قائلاً:

- «أنتِ رائعة، لكنك لا تعرفين بعد قدر الدناءة الذي وصلتُ إليه».

رفعت يدها متوسلة: «لا أريد أن أعرف!».

- «إذن أنت تخافين أن تكرهيني؟».
- «لا، ولكن أنت من سيكرهني. دعني أفهم الأمر دون أن تخبرني مزيداً عنه».
- «لا يمكنكِ ذلك. الأمر في غاية الدناءة. اعتقدتُ أنكِ لم تكترثي لأنك واقعة في غرام فلاميل».

احمرّت وجنتاها خجلاً وقالت بلهجة تحذيرية: «إياك وقول ذلك».

- «أتقصدين أن ليس لدي الحق؟».
- «بل أقصد أنك ستشعر بالندم».

وقف أمامها مباشرة وعلى مقربة منها ثم قال:

- «أريد أن أبوح بشيء سيئ، شيء أكثر فظاعة وقباحة، شيء إن

لم تتقبليه، فسيكون لديكِ الحق الكامل في طردي من المنزل».

نظرت إليه نظرة من يعرف كل شيء، ثم قالت: «سأفهم الأمر، لكنك سوف تندم».

- «عليّ أن أجرب». ابتعد، وألقى بالكتب على الطاولة، ثم استدار مواجهاً أليكسا: «هل يهتم فلاميل لأمركِ؟».

ازداد احمرار وجنتيها، لكنها بقيت تنظر إليه دون غضب يُذكر: «ما الغاية من هذا السؤال؟»، قالت بنبرة حزينة.

«لم أقصد إحزانكِ»، همس نادماً.

- «حسناً إذن...؟»، قالت مستجدية أي جواب.

لكنه لم يردّ على استجدائها بسوى النظر إليها بعين باتت تراها الآن عنصراً بسيطاً ضمن عملية إعادة ترتيبٍ هائلة لكل ما حدث.

- «لقد هاجمتُ فلاميل اليوم ووجهت إليه إساءة، تركته يعلم أنني اشتبهت في أنه أخبركِ. لقد كرهته لأنه كان على علم بأمر الرسائل».

لاحظ نظرة الرعب في عينيها، وشعر لحظةً بأنه مضطر إلى مواجهة الفتنة التي أشعل فتيلها، فأضاف على مضض: «لا تلوميه فهو لم يقترف ذنباً. لقد ساعدني على نشر الرسائل، لكنني كذبتُ عليه أيضاً، لقد أوهمته أن الرسائل قد كُتبت إلى شخص آخر، إلى رجلٍ ميت».

رفعت ذراعيها في حركة بدت كأنها تصد ضرباتٍ موجهة إليها.

- «أنتِ تحتقرينني الآن، صحيح؟»، قال بإصرار.
- «يا إلهي، تلك المسكينة، تلك المرأة المسكينة»، سمعها تتمتم.

استكمل كلامه متبجحاً وأليكسا لا تزال تخفي وجهها:

- «كما ترين، أنا لا أرحم أحداً».

«أنتِ تكرهينني صحيح؟ أنتِ تحتقرينني الآن!»، ابتهج بطريقة غريبة.

- «اصمت!»، أمرته أليسكا، لكنه بدا غير مُدرك تصرفاته أو مسيطر عليها.
- «لقد اعتنى بكِ، واهتم لأمرك، ولم يخبرك بشأن الرسائل قط!».

وقفت على قدميها وانفجرت في وجهه: «كيف تقدر على ذلك؟ كيف تجرؤ؟».

صاح غلينارد وقد شحب لونه. «إنه سلاح ... اتهامي إياه سلاح مثل أي سلاح آخر ...».

- «أيها الوغد!»، صاحت.

ارتسمت على محيّاه ابتسامة مريرة: «كان عليّ أن أستخدمه ضده».

«ستيفن! ستيفن!»، صاحت، كأنها تحاول أن تمحو التجديف الذي نطقت به شفتاه. اقتربت منه وقالت بلهجة من يريد أن ينقذ ما يمكن إنقاذه: «لا تقل أشياء كهذه. أنا أمنعك. إنك بذلك تنزلنا منزلةً دنيا».

أجلسها في مكانها بيدين مرتعشتين، وقال: «لا شيء أقوله عن نفسي يمكن أن يُؤثر في سمعتكِ، أنتِ في مستوى مختلف تماماً».

- «أنا معكَ مهما حصل».

رفع رأسه وأخذ يحدق بعضهما إلى بعض.

الفصل الرابع عشر

يحدث التجدّد العظيم بصمت، تماماً كبدايات الربيع الذي يفترش الأرض معلناً فجأة انتهاء العواصف. ومع أن غلينارد شعر بأنه أقرب إلى زوجته، لكنّ الحواجز الشخصية ومسافة الأمان كانت لا تزال موجودة بينهما. كان كمن يتعلم بصعوبة مبادئ لغة جديدة، ويتمرّن على شخصيته الجديدة. كان عليه أن يمشي من أجلها وسط ضباب العار الكثيف الذي يعوقه ويشوّه وجهه الحقيقي.

إن جهلنا حقيقة أن الأشخاص المقربين منّا يعرفوننا جيداً، هو ما يجعل العيش معهم أمراً ممكناً. ومع أن الحب هو أمتن ملجأ للثقة بالنفس، فإننا نكره تلك العيون التي تكشف حقيقتنا وتُعرّينا تماماً. إذا لم يكن غلينارد يكره زوجته، فقد وُلدت معه ببطء وبعد معاناة هذه العاطفة العميقة التي جعلت إحساسه السابق بكرهها مجرد نتيجة لاضطراب مشاعره وتشوشها. كان كطفلٍ يتوق إلى الشعور بوجود أمه إلى جانبه، يستمد أمانه وقوته من حنانها.

لم يتحدثا كثيراً بداية الأمر، إذ يلتف كل منهما حول الموضوع ويتحاشى الدخول في صلبه كأنه غابة مسكونة بالأشباح. ومع ذلك، كانت كل كلمة تُحكى وكل تصرّف يصدر كأنهما يلمّحان إلى ذاك الموضوع ويتمحوران حوله. لو استطاعا أن يجدا طريقة للخوض فيه بأمان واستعادة الثقة بينهما فسيغدو الداء والدواء في الوقت نفسه.

كان غلينارد يراقب زوجته عازماً على التركيز على كل تصرف تفعله مهما بدا طبيعياً، وعلى كل إشارة تبدر منها. رأى أنها لجأت مؤقتاً إلى فكرة التخلي عن المال، رغم دراية كل منهما، نظرياً، بعدم جدوى مثل هذه التضحيات. ولكن شخصية المرأة الفطرية جعلتها تستجدي الراحة في هذا الشكل البدائي من التكفير عن الذنب. لاحظ غلينارد أن زوجته تريد العيش بتقشف قدر المستطاع حتى يتمكنا من تسديد ما كانت تعدّها ديونهما. أمّا هو فكان يُصلّي لئلا تكتشف حجم الأموال الحقيقي التي تحلم بسدادها. كان ذلك الدين ثقيلاً جداً ويتعدى الحدود المادية. صبت أليكسا جلّ تركيزها على المبلغ الذي دُفع في الأصل مقابل الرسائل، وكان غلينارد يعلم أنه يستطيع جمع المبلغ خلال عام أو عامين. لكنه في الوقت نفسه كان يلمس فيها نبل أخلاقها في التخلي عن أشكال البذخ والرفاهية التي وجدت فيها دليلاً على استعباد الدَّين إياهما. لقد ساهمت التنازلات المشتركة التي قدّماها في تقليص المسافة بينهما، وساعدت على استعادة مكانتها في قلب غلينارد ومحبته إياها رغم بساطة تلك التنازلات. لكنهما مع ذلك، لم يتكلما بعد.

بعد مرور أسابيع عدة، وبعد ظهر أحد الأيام، كانت أليكسا جالسة قرب الموقد في غرفة المعيشة. وعندما دخل غلينارد، سلّمته رسالة كانت تقرؤها.

- «وصلتني أخبار عن السيد فلاميل».

كان الأمر كأن فلاميل تجسد أمامهما لمجرد ذكره. أخذ غلينارد الرسالة دون تفكير.

- «إنها من مدينة سميرنا، ألا تود قراءتها؟»، سألته.

قال وهو يعيد الرسالة إليها:

- «تستطيعين أن تُخبريني عن مضمونها، تصعب عليّ قراءة خطّه». مشى إلى نهاية الغرفة ثم استدار ووقف أمامها، وقال: «كنت أُفكر في الكتابة إليه».

رفعت أليكسا نظرها نحو غلينارد الذي واصل كلامه ببطء:

- «هناك فكرة واحدة يجب أن أوضحها. لقد أخبرت فلاميل أنك كنتِ تعلمين بأمرنا وأمر الرسائل طول الوقت، أو مدة طويلة على الأقل، ورأيت كيف جرحه ذلك الأمر. لقد كنتُ أعي تماماً ما أفعل، ولذلك، لا يُمكنني ترك هذا الانطباع الخاطئ وسوء التفاهم بيننا. يجب أن أكتب إليه».

لم تُبدِ أليكسا رد فعل تجاه كلماته، لكنه شعر بأنها اضطربت في أعماقها. سألته بنبرة يشوبها التردد:

- «لماذا تسميها انطباعاً خاطئاً؟ لقد علمتُ بالفعل».

- «نعم، لكنني أشرت إلى أنك لم تكوني مهتمة».

- «حسناً».

ظل غلينارد يحدق إليها ثم تابع:

- «ألا تريدينني أن أصحح الأمور؟».

رفعت رأسها نحوه بشجاعة وقالت: «ليس بالضرورة».

عبقَ وجه غلينارد بالدماء بعد جوابها الحاسم، وقال بعد أن فهم ما تريد: «حسناً، لا يمكن أن أصحح أي شيء معكِ، لكن بالنسبة إليّ، لا يزال بوسعي تصحيح الأمر مع نفسي».

نظرت إليه بلطف، وتمتمت: «ألا يمكنني أن أصحح أي شيء معك؟».

- «في أن تكوني على سجيتكِ فقط؟ لا. إنك تجعلين عملية إعادة التأهيل مثالية، وتجعليننـي أبدو، أمام نفسي حتى، ما لست عليه، وما لا يمكن أن أكونه. لا أستطيع في بعض الأحيان التغلب على أوهامي، ولكن يمكنني على الأقل تنوير الآخرين».

هدأ اضطرابه وجثا على ركبتيه ممسكاً بيدها: «ألا تلاحظين أن الأمر يُشكل هاجساً بالنسبة إلي؟ أشعر بأنني لو استطعت أن أُعرّي نفسي تماماً حتى آخر كذبة، سأجد دوماً كذبة أُخرى تنتظرني، لأشعر بعدها برغبة جارفة في التكفير عنها علناً والاعتراف بخطاياي على مرأى من الجميع، كمن يداوي جرحاً بجرح آخر؟ ألا ترين أن أسوأ ما في هذا العذاب هو استحالة تداركه؟».

أرخت يديها لتستريح في يده، وتنهدت قائلة: «يا للأسف، امرأة مسكينة، امرأة فقيرة».

- «لا تُشفقي عليها، بل أشفقي عليّ. فما الذنب الذي قد اقترفته بحقها أو بحقكِ؟ لم يُدنّس اسمكما في النهاية، أمّا أنا فقد بِعتُ نفسي».

خطا مبتعداً عنها فجأة، ثم انفجر في وجهها قائلاً: «كم من الوقت تعتقدين أنك تستطيعين أن تتحملي؟ لقد كنتِ رائعة، كنتِ مُلهمة، لكن ما الفائدة؟ لا يُمكنكِ بأخلاقكِ الحسنة هذه أن تغسلي العار الذي اقترفتُ. إنه تصرف مؤذٍ لك، وغير مفيد لها على حد سواء».

أضاء وجهها بلون زاهٍ ثم بكت قائلة:

- «هذه الفكرة هي ما لا أقدر على تحمّله».
- «أيّ فكرة؟».
- «أنّ كلّ هذا لا يفيدها ولا يُحدث فرقاً، فكل مشاعرك ومعاناتك لا طائل منها».

تجنب نظرتها المتحدية، وتمتم: «لقد حدث ما حدث، قُضي الأمر».

- «أتساءلُ؛ هل قُضي الأمر حقاً؟»، همست أليكسا.

لم يتفوه غلينارد بأيّ كلمة، وعمّ الصمت الأشبه بقناة تواصل فكرية.

وبعد مدة قصيرة، بادرت بالحديث بنبرة حذرة يشوبها الخجل، نبرة جعلت غلينارد يلتفت نحوها بانتباه.

قالت تلفها هالة من القلق والليـن: «يُحكى أن المؤمنين الأوائل، بدل هدم المعابد الوثنية، معابد الآلهة الدنِسة، لجؤوا إلى تطهيرها من خلال تحويلها لاستخداماتهم ومنفعتهم. لطالما آمنتُ بأن الإنسان يستطيع أن يُسقط هذا الأمر على أفعاله، تلك الأفعال التي يكرهها لكن لا يستطيع تغييرها أو التراجع عنها. ما أعنيه، هو أن المرء يستطيع أن يبني جداراً من الإرادة أمام أخطائه، بدل أن يستمر في ارتكابها ويدخل في دوّامة لا نهائية من العذاب».

أضافت بصوت متقطع: «لا يُمكننا دائماً هدم المعابد الوثنية، لكن يُمكننا غرس البذور الطاهرة في الأرض الشريرة، بذور الرحمة والتعاطف والتقبل، التي رُبّما لم نكن لنكتشفها لولا حاجتنا الماسّة إليها».

مشت نحوه ووضعت يدها في يده. ظلّ مطأطئ الرأس دون حِراك. جلست إلى جانبه دون أن تتكلم، لكن صمتهما الآن كان سخياً كالغيوم الماطرة التي تُحيي بذور التفاهم.

نظر مطولاً ثم قال: «لا أعرف ما البذور الطاهرة التي ستنبت في البيئة الشريرة التي صنعتها يداي، لكنكِ موجودة، وهذا يكفيني. إنه لأمرٌ غريب». تابع بعد صمت قصير: «لطالما كانت تتمنى لي الأفضل. والآن حصلت عليه من خلالها. لكن من أجلها، ما كان يجب أن أعرفكِ، لكنني من خلالها قد عثرتُ عليكِ. أتدرين؟ هذا بالضبط ما يزيد الطين بلّة أحياناً، هذا ما يُضاعف بؤسي وقسوتي مع نفسي. ألا ترين أن هذا أسوأ ما قد أُواجهه؟ أعتقد أحياناً أني كنت لأستطيع تحمّل هذا العبء بصورة أفضل لو لم تكوني قد تفهمتِ الأمر. لقد أخذتُ كل شيء منها، لقد استنزفتها، حتى عزاؤها البسيط في وفائي لها، وفائي الذي لا يشوبه شك بالنسبة إليها، الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع أن أُبقيه، قتلتهُ. لقد سلبتُها، وخدعتها، ودمّرتها، وفي مُقابل كل هذا، منحتني إيّاكِ».

انهمرت الدموع من عيني زوجته وهي تقول:

- «ليس الأمر أنها منحتك إياي، بل منحتكَ نفسك». مالت نحوه وكأن موجة من العطف قد جرفتها إلى الأمام. تابعت القول وعيناه معلقتان بها: «ألا ترى أن هذا هو العطاء الذي لا يمكنك الهروب منه، هذا هو الدَّين الذي نذرت نفسك لسداده؟ ألا تُدرك أنك لم تكن يوماً كما كانت تظن مارغريت، والآن جعلتْكَ بفعل سحرها الرجل الذي أحبّتْ؟ هذا ما يستحق العذاب،

ويستحق الموت أيضاً، وبالنسبة إلى امرأة مثلها، هذه هي الهدية التي كانت ترغب في تقديمها لك».

صرخ متألماً: «يا لبؤسي وشقائي. وما الذي قدمته أنا لها؟».

- «سعادة العطاء»، قالت.

النهاية

مكتبة
t.me/soramnqraa

EDITH WHARTON

المِحَكّ

رواية تتلاشى في عمقها حدود النفس الإنسانية والشغف والخيانة والغفران بين الكلمات والأحداث. نتابع فيها خيوط حكاية ستيفن غلينارد، المحامي الشاب الذي باع كنزًا عاطفيًّا خطّته له الروائية مارغريت أوبين بحبر روحها، ليحقق حُلمه في الزواج من الفتاة التي أسرت قلبه. يواجه ستيفن خيارًا صعبًا من الناحية الأخلاقية، لكنه يتخذ الخطوة التي يعتقد أنها صحيحة، ليدخل بعدها متاهة المرايا التي عرّته. تتشابك الخيوط الإنسانية مع محاولاته إعادة تجميع ذاته المتشظية، باحثًا في أعين الآخرين عن الغفران والسكينة والقبول. «المِحَك» للكاتبة العظيمة إيدِث وورتن، ليست مجرد سردٍ أدبي، إنما قطعة فنية تجسّد الإنسانية بكل جمالها وتعقيداتها، وقصة عميقة تعزف على أوتار الروح البشرية ببراعة متناهية، ورواية تحمل إرثًا أدبيًّا يتنفس جمالًا وحقيقة حدّ الألم.

9 789921 809169

مكتبة
t.me/soramnqraa